القسم الرابع

التعبير عن العصر الحديث

عربياً...

الفصل الأول

ملامح وتناقضات المجتمع اليوناني القديم

كل ما مررنا به في الفصول السابقة في مجال الاستدلال على أن فن الرواية الخيالية والمسرح الأوروبي، فن غريب عن آدابنا، ومضاد لطبيعة مجتمعنا العربي الإسلامي ورسالته في الحياة، ومنهجه في التعبير، وأخلاقه ومبادئه — نمر هذا المرور العابر أيضًا بالمجتمع اليوناني القديم، الذي عاش به اليونان الأوائل، أو الإغريق، بكل خصائصهم الجنسية والفكرية والعبيرية، وبكل تراثهم الشعري الأسطوري، والمسرحي، والفلسفي، والسياسي يمثلون "الجذور" الحضارية لأوروبا كلها إلى اليوم، فهم الملهمون الأوائل لكل شعوب أوروبا اللاتينية والجرمانية، منذ ما كان الظلام يغطي أوروبا قبل المسيحية، وبعد المسيحية، وحتى ر النهضة التي عادت أوروبا به بعد الصحوة المفاجئة على الحضارة العربية الإسلامية العلمية — تستلهم اليونان القدماء، صبغة جديدة لوثنية عصر التفتح على العلم بمعنى المنهج والقانون.. وهكذا.. في عالم أوروبا الوثني بطبيعته عاش اليونان الأوائل مثالا فذا أمام الشعوب الأوروبية تستلهم منه حضارة الخمر والفلسفة والعدوان، بمثل ما عاش العرب الأوائل في قلب الوطن العربي مثالاً تستلهمه الشعوب العربية دائمًا مبادئ ولغة ومجتمع الدين والعلم، والعدل والرحمة..

الأصل الهندي

يرجع الإغريق إلى الجنس الآري، وجماعتهم الأولى نزحت من الهند مع جموع القبائل الهندية التي اتجهت من بحر قزوين غربًا وشمالاً إلى أوروبا. وعندما وصلوا في ترحلهم من آسية إلى شبه الجزيرة التي حلوا بها مرورًا بالدانوب كانوا قبيلة صغيرة من الرعاة تحمل في جعبتها أعظم أكاذيبها الغرورية عن نسبها المتميز على البشر، فلقد كانوا يطلقون على أسفسهم اسم "الهيلينين" نسبة إلى هيلين بن ديوكاليون من زوجته بيرها

الذين كانا المخلوقين – حسب أساطيرهم التي روجوها – الوحيدين اللذين منحهما زيوس النجاة من الطوفان الذين أغرق به العالم غضبًا على البشر!

ويشهد أكثر المؤرخين صدقًا أن هؤلاء الهيلينين القدماء كانوا كما يصفهم المؤرخ الهولندي هندريك فان لون: "على جانب كبير من انحطاط الخلق، يعيشون عيشة الخنازير، ويلقون بأجساد أعدائهم إلى الكلاب المتوحشة التي كانت تحرس أغنامهم، وقلما كانوا يحترمون حقوق الشعوب الأخرى، فقد قتلوا أهلي شبه جزيرة اليونان الذين كانوا يعرفون باسم الفلاسجة، ونهبوا مزارعهم، واستولوا على ماشيتهم، وسبوا نساءهم وبناتهم.. "!!

ثم يتحدث فان لون عن المصدر العربي الأول لثقافة هؤلاء الهمج في مجال العمران والتقدم، وليس في الوثنية والخرافة والعدوان فيقول: "وقد شاهدوا هنا وهناك حصون الايجبين فلم يهاجمرها لأنهم كانوا يخشون السيوف المعدنية والرماح في أيدي جنود إيجة، وعرفوا أنه لا أمل لهم في التغلب عليهم بواسطة فؤوسهم الحجرية الفجة.. وقد دأبوا على التجول عدة قرون حتى احتلوا البلاد بأجمعها ومن هذه اللحظة بدأت الحضارة الإغريقية، ذلك أن الفلاح الإغريقي الذي كان يعيش على مرأى من المستعمرات الإيجية قد دفعه فضوله آخر الأمر إلى زيارة جيرانه" حيث تبين له أنه يستطيع أن يتعلم منهم أمورا كثير نافعة .. وكان الفلاح الإغريقي تلميذًا نجيبًا، إذ سرعان ما برع في استعمال هذه الأسلحة الحديدية الغربية التي جلبها الإيجيون معهم من بابل وطيبة أي "العراق ومصر " وأدرك أسرار الملاحة فأخذ في بناء السفن فلما فرغ من كل ما يمكن أن يتعلمه من الإيجيين انقض عليهم، وطردهم إلى جزائرهم .." .. هكذا يتحدث فإن لون في كتابه "قصة الجنس البشري".

ثم يقول في عدوانية اليونان الأوائل "وسرعان ما تجاسر الإغريقي وركب البحر، وغزا جميع مدن بحر إيجة، وانتهى به الأمر في القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى سلب مدينة كنوسي وتخريسا" !!

الوثنية في الجذور:

تناول أحمد أمين في كتابه "قصة الأدب العالم" في تحليله لمعتقدات اليونان من آدابهم ما يؤكد هذا الرباط الخيالي عند اليونان بين كل من مفهوم الإنسان عندهم، ومفهوم الطبيعة، وهو رباط "الأسطورة" القائمة على تفسير الطبيعة والإنسان من المنظور اليوناني بتوهم وجوه الآلهة، واستعمالها كرموز خيالية يدور بها تفسير الوجود في إطار وثني إلى الأبد..

يقول أحمد أمين: "لعل اليونان لم يستطيعوا حل تلك المشكلة العويصة، أي مشكلة الإنسان والطبيعة والآلهة ذلك الحل الشعري، في أساطيرهم، إلا بتلك الخاصية التي يجمع النقاد على توفرها لديهم، ونعني بها أنهم قوم يفكرون "بخيالهم" وبذلك استطاعوا أن يجمعوا بين نشأة الآلهة ونشأة العالم".!

ثم يقول مما يكشف عن بذور صراع الإنسان اليوناني مع الطبيعة المحيطة به: "وفي كتاب الشاعر اليوناني هزبود الذي جاء بعد هوميروس بأربعة قرون نقرأ اليوم بوضوح فلسفة للكون تماشى تسلسل الآلهة: وتوزيع الاختصاص بينهم، وكانت هذه أول مرحلة لحل المشكلة – أي مشكلة الإنسان والطبيعة والآلهة – وكانت المرحلة الثانية أنهم خلعوا صفات الإنسان عن آلهتهم، وبذلك قربوها إليهم، وحملوها نزواتهم. ومنذ أصبحت لهم آلهة شبيهة بالبشر أخذوا يتصورون آلهة أخرى وربات في كل ما في الطبيعة من جبال وأنهار وغابات وأشجار، حتى لنستطيع أن نقول: إذا كان

الهنود يعتقدون بالحلول الإلهي في الكون، فإن اليونان اعتقدوا بالحلو الإنساني في الآلهة، فالإنسان عندهم حال بكل شيء، حال بالآلهة، ثم حال بالطبيعة التي تصوروها تملك كل خصائص الإنسان، وهكذا اتخذ اليونان من الإنسان محورًا للوجود كله، ومنبعًا له"... انتهى.

وكما أن اليوناني في أساطيره قلب المفهوم الهندي لآبائه عن الحلول الإلهي في الوجود أو وحدة الوجود، وذلك بسبب تغير مناخه من الحر إلى البرد، ومن الشبع إلى الجوع، واستمر لا يرى الوجود المحيطة به إلا واقعًا ممزقًا إلى أجزاء لا تمنحه المنظور الواسع الكامل المضيء، كما يراه ولا يزال يراه العرب فإن هذا اليوناني قد ورث تمامًا أسلافه الآريين في فلسفته الوثنية عن الزمن، واعتبر إرادة الإنسان حرة في وجه الجبر الإلهي.. لقد أخذ من طريق الرمز في أساطيره يعلن عن وجهته في إطلاق العنان لشهواته بغير ضوابط يمليها عليه إيمانه بالإله الحق الذي يحكم ويدير الوجود بعد خلقه، أو على الأقل يمليها عليه إيمانه بأن هذا الوجود – الذي عجز عن التفرس والتفكر فيه في حالة الصحو وليس في حالة الصحو وليس في حالة السكر – محكوم بقوانين العلم، وأن هذه القوانين محكومة أيضًا في قواعدها المتشعبة بقانون الاتساق والحتمية والصيرورة.

لقد قال اليوناني في فلسفته وهو ينصر "زيوس" أي النهار الذي يعمل فيه ويأكل ويسكر، على الزمن الذي روعته لا نهائيته، وأعجزته آفاقه، لقد قال ما يعني أن انتصار "النهار" وهو زيوس كبير الإلهة البشري الفاسق على كرونوس أي "الزمن" الذي أفلت من "وحوش العدم" التي كادت أن تمزقه إنما هو "انتصار للمحدود على غير المحدود" أي انتصار لغرض الإنسان ليعيش، ويحمل، ويستمتع" ويقرى بالخرافة والخمر والأسلحة ليبيد أعداءه ويستولى على ممتلكاتهم من حقول القمح والكروم.. من أجل

الخبـز والخمـر..! وهكـذا كـان الإسـكندر مثـالا لهذا التفسـير العـدواني الخرافي للوجود .. تفسير السكارى الذين يهيجون بين الحين والحين بعد أن يخدروا أعداءهم بالأكاذيب والأساطير، لينقضوا عليهم بالغدر والعدوان والسرقة!!.

لقد اعتبر اليوناني الأول – كما كان الفرس يرون في دياناتهم القديمة وفي بعض مذاهبهم الاعتقادية بعد الإسلام- إن الإنسان مطلق الاختيار في هذا الوجود، وأنه تعبيرًا عن صراعه مع هذا الوجود قد وضع آلهته في "القيود" التي صنعها لهم بخياله. ليفرح ويمرح كما يشاء من خلال "الفوضى" التي غرق فيها بتفكيره الخيالي.. بعيدًا عن دين حق. . أو علم ضابط .. أو فطرة سوية.. لا تدَّعي .. ولا تعتدي.. وهي تعرف "المعروف" واقعًا فتأخذ به ، وتنكر المنكر باطلاً في ضوء هذا المعروف فتنهى عنه!.

صناعة التفكير:

لم تكن لليوناني الأول فطرة الإنسان السوي التي تهديه في بداية العلم المكتسب إلى أول الطريق الصحيح في تفسير الوجود، وحل مشكلة الإنسان والطبيعة، فتألـه من خلال آلهته، وبدأ يمارس تفكيره الباطني الذي يتيح له من غير ضوابط " الفطرة" أو "قوانين " العلم، أن يفجر بأفكاره كما يشاء، وأن يهذي ويخدع الناس، بعد أن يكون قد غرق في خديعة نفسه إلى ما فوق أذنيه..

لقد كان هذا اليوناني الأول بين الظلمة والجليد والطمع والغرور، يفكر كما يقول أحمد أمين "بخياله " وهو تعبير يتسع لجميع ما ذكرناه في الفصول السابقة لبيان انفصال هذا الإنسان عن وجوده المحيط به داخل نفسه. وإنه لم يكن يدرك هذا الوجود في تعبير لغته ألا يفعل "الكينونة"..

وإنه لم يكن يدرك البرهان على هذا الوجود بالبرهان العلمي الحسي بالنطق أو اللمس، فاعتبر أنه موجود بالتفكير، كما وضع ديكارت نفس هذا المفهوم في قوله المشهور: هو يفكر: فهو موجود.. !

وهكذا انطوى الواقع، وانعكس على قاع الفكر الإنساني بملايين الانعكاسات داخل أدمغة اليونان، وفي طوايا أنفسهم، وبملايين التناقضات، وهي تأخذ الشكل الهرمي بين قاعدة من العبيد وقمة من غير العبيد تنتهي إلى تحالف الملوك والأثرياء والفلاسفة.. وحيث يصف أفلاطون المنطق الصوري غير العلمي لقمة الفكر اليوناني بأنه أي المنطق أو "اللوجوس" وبعبارة يسجلها الفلاسفة المعاصرون هو "الاستعمال المعقول للكلمات في التفكير" !

فالفلسفة التي عاش اليونان وذيولهم يزعمون أنها طلب الحقيقة، وحب الحكمة ، ليست إلا قوالب فكرية، صورية، غير علمية في علاقة فكرها بالواقع، ولذلك فهي لا تكن أن تتجسد في واقع سوى، اجتماعي أو فردي، في حياة الإنسان.. والدليل قائم على ذلك في تضارب الفلسفة في كتبها، والفلسفة في مذاهبها ومجتمعاتها .. إلى اليوم.. !

قلنا في الفصول السابقة أن الفطرة النشطة في حياة المؤمن العملية هي الطبيعة السوية للإنسان الذي لا يعيش معناه "المجرد" والمعزول عن واقعه داخل نفسه، بل يعيش هذا الواقع مدركًا أنه جزء من أجزائه .. جزء فعال في الواقع، وفعال به، وفعال معه، ومعبر عنه، أي عن هذا الواقع الحي الذي يضئ به الإنسان كان هو عقل واقعه السليم، وصوت إيمان الواقع بلغة وعمل الإنسان.

ولذلك فالأوربيون لا يعرفون الفطرة وإنما يعرفون الضمير الذي يسمونه conscience ويقصدون به "الطوية" و"النية" أي ما هو في "داخل

الإنسان" مصدر تصوره ومعرفته لما هو في خارجه، ولذلك فهذه الكلمة على طريقة اللغات الأوربية التركيبية المفصلية تحمل معناها من مقطعين هما: eon وهي صادرة معناها: معًا.. و Scienee ومعناها : معرفة أو فن أو علم .. إذن فالمعنى الإجمالي لكلمة الضمير أو الطوية عند الأوربيين يساوي معنى "المعرفة الداخلية المنطوية في الإنسان مع نفسه"..

هذا المعنى الذي تتخلق به أجزاء المعرفة مضمرة في "ضمير" الإنسان الأوروبي بغير ضوابط تحكمه في واقع علمي للوجود خارج نفسه يؤكده لفظ أوروبي قريب من لفظ كلمة "الضمير" وهو conscious ومعناها "الشعور" والوجدان.. فالشعور الشخصي كان ولا يزال هو وعاء هذا "الضمير" المنطوي داخل نفس الإنسان الأوروبي، المتصادم مع الطبيعة المحيطة به، وغير المبصر لوحدة أجزائها، والمعزول عنها بالجوع وضربات الجليد، ليفكر فيها وراء جدار، وبجوار مدفأة، ومخمورًا أحيانًا كثيرة!. .

وهكذا فإنه كان حتمًا في حكمة خلق الله أن يرى الإنسان الأوروبي في واقع انفصاله عن الوجود والتفكير خارج نفسه – أن علاقته الأساسية بالوجود هي هذه "العمليات الفكرية" الفردية داخل نفسه، بحثًا عن تفسير مقبول للوجود المحيط به" وهو بذلك قد اكتشف أن من ضميره وطويته، ومن شعوره المبهم وأهوائه، من صور ومسموعات العالم الخارجي التي يجمعها بغير ضوابط، أو رؤية شمولية، أو وحدة مع الطبيعة، ليجرها إلى داخل نفسه – قد صنع عالمه على هواه داخل نفسه.. أو كما استطاع أن يقول بلغته "داخل عقله" الذي لم يكن له مفهوم في لغته ولا وعيه حتى الآن إلا أنه "الذكاء والرغبة والتذكر" وهي العوامل التي تساعده على عملية "التفلسف" وعلى اكتشاف الصيغ التي تساعده بآلة "العقل" على توليد

وتخليق أفكار جدلية جديدة .. أفكار لا تصلح للواقع الذي نشأت بعيدًا عنه في قاع وباطن رأس فيلسوف.. وإن كانت تصلح لإضافة شبهة جديدة حول "الحقيقة" للجدل حولها في حلقات الفلسفة المفرغة منذ كانت إلى اليوم..

من أجل هذا تعددت دلالات كلمة "العقل" عند الإنسان الأوروبي الذي يصنع أفكاره بالاستبطان الداخلي معزولاً عن واقعه، فأصبح يعني الذهن والمخ للدلالة على مكان "العمليات الفكرانية" في الاستبطان الداخلي وذلك في كلمة Intellect من الأصل اللاتيني الذي يعني الدماغ والمخ والذهن intellect ومشتقاتها بعيداً تماماً عن مفهوم كلمة "العقل" بلغة العرب.

وكذلك أصبح " العقل" يعني "الذاكرة" التي هي أساس العمل العقلي والفكراني عند الإنسان الأوروبي، الذي يجلس للتفكير الباطني في عملية استرجاع وتذكر لأجزاء الواقع الممزقة، وإعادة تركيبها داخليًا، بالتوفيق مع لغة مفصلية عجماء ليس لها مع واقعها أي تماثل علمي.. فكلمة mind تعني الذاكرة، والرغبة التي تحرك الذاكرة، وهي ذات مصدرين في اللغة الإنجليزية.. المصدر اليوناني mainesthe بمعنى يتذكر .. ومصدر جرماني انجلوساكسوني قديم يرجع بالذاكرة الخرافية أيضًا لكلمة mind إلى الإله مانو minna الذي هو الأب الأعلى الأسطوري للجرمان.. !

وكذلك أصبح "العقل يعني الشعور" وذلك لارتباطه الفردي والذاتي بشعور الفيلسوف صانع واسكاني الأفكار الداخلية الذي يصنع أفكاره داخل أقبيته وسراديب مخه، وذاكرته، وخرافاته، بحسب "شعور" الذي هو غبته، كما يصنعها دائمًا بحسب " طويته" أو ضميره.. وبهذا فقد أصبحت كلمة concious أو conciousness ومعناها الشعور تعني

عنـد الإنسـان الأوروبـي "العقـل" وأصـبح أيضًـا للإنسـان الأوروبـي "العقـل" وأصبح أيضًا للإنسان الأوروبي. كما اكتشف ذلك اليهودي فرويد – عقل باطن آخر تحت عقله الباطن الأول سماه "اللاشعور" unconscious ، وهو يعني أن جميع "الرغبات" التي لا تتحقق في عمليات "العقل" التي لا يعيها الأوروبي تسقط في "اللاشعور" الذي تتجمع فيه نفايات "عقله" أي "مصنع أفكاره الباطني" .. ومع الزمن تحدث هذه "النفايات" في " العقل الباطن" تلوثًا للبيئة حول " العقل الواعي" الحبيس داخل نفسه، وشعوره ، وفوق نفاياته ولا شعوره.. وتسبب له أفظع وأغرب "العقد" والأمراض النفسية والعقلية والعصبية .. التي أعلنت عن نفسها أخيرًا في أكثر مظاهر "العدوان " و"العبث" و "القلق" و"الانهيار" و"الضياع" كما يعيشها الأوربيون اليوم مع امتدادهم الأمريكي.. في انتظار يوم الحساب.. وسقوط أكاذيب هذه الحضارة "اليونانية الرومانية" الجديدة .. كما سقط أسلافها من قبل..

كذلك فإن العقل يعني عند الإنسان الأوروبي من أيام اليونان الأوائل – بخلاف الذكاء والذاكرة والرغبة والشعور – أنه "الفكر الحدسي الخالص" أي القائم على الظن والتخمين الفلسفي، كما تدل عليه كلمة عقل اليونانية وهي nous ومعنى هذا أن العقل بالمفهوم الأوروبي العام منفصل عن الواقع العلمي، بل أن نشاط العقل، أي الحدس، هو في بعض شطحات أرسطو الغامضة منفصل أو مفارق لنشاط البدن !!

من هذه العمليات "الفكرانية" الباطنية نشأت "الفلسفة" اليونانية تحمل تناقضاتها من أول يوم .. تناقضها مع نفسها بين "المادي" و"المثالي" .. وتناقضها مع الحقيقة التي تبحث عنها في شكل المجتمع "الطبقي" الذي لم تستطع أن تتصوره بكهانة الفكر إلا على أساس ملوك وعامة، وأحرار وعبيد .. وقاهرين ومقهورين .. وهي تبيح هذه الطبقية بغير خجل استنادًا إلى

" عمليات عقلية" لا تتم في داخل العقل الفردي إلا على أساس أن العقل هو "الذكاء" أو هو "الذاكر " أو هو "الرغبة" أو هو "الشعور" أو هو "الحدس" وليس على أساس علمي منهجي يرى الواقع في إطار للقوانين، والتي لا تتناقض، ولا تختل، من حكمة إلى غاية.. تمضي والإنسان معها، ليشهد عليها بعلمه وانتصاره، أو لتشهد عليه بغروره ، وضياعه!؟

ولابد أن نشير هنا في مجال التذكير بالأساس الواهي الذي يستند إليه كل تاريخ اليونان الفكري، ونتاجه الوثني من الفلسفة والأسطوره والمسرح إلى ما تناقله الكتب في سيرة الأسكندر المقدوني من غضبه على أرسطو عندما علم أن معلمه وفيلسوف الطبقة "المصطفاة" بالتفكير قد نشر عددًا من كتبه الفلسفية، وكان الأسكندر قد خرج في رحلته العدوانية التي اعتزم فيها " استبعاد" الشعوب الغنية في أرض العرب والشرق، وتحويل مواردها من القمح والخمر والأنسجة والذهب إلى بلاده الجائعة المقرورة.. فكتب إلى معلمه وكاهنه أرسطو يقول له في غرور ملك، وطمع لص: "إلى أرسطر. لقد ارتكبت خطأ بنشرك الأجزاء "الباطنة" من العلم، وإلا فكيف يبقى اختلافنا عن الناس، إذا جعلت "المعرفة العليا" التي اكتسبناها منك مشاعة في العالم أجمع"!

لقد سمى الأسكندر هذه الفلسفة بالعلم "الباطني" وهذا صحيح، إذ هي محاولات معرفة "باطنية" في مصدرها وهو التفكير "الباطني" المعزول عن الواقع، أي عن المصدر الصيغ العلمية للمعرفة، وبذلك تصبح تلك المعرفة "الباطنية" التي تحمل أداة "التفكير الكابح" للطبقات الأدنى هي "المعرفة العليا" التي لا تكون إلا للملوك وفلاسفتهم، أي كهنتهم الفكرانيين، الذين بوسعهم في شعب وثني شرس مثل قبائل الهيلينيين أن يجعلوا من مارك هذا الشعب، وتحت عنوان الديمقراطية الزائفة والخادعة

والمسرحية "آلهة" ينظمون طبقاته تنظيمًا "عبوديًا" ساحقًا، كما نظمها الكاهن السابق لأرسطو وهو أفلاطون بحيث يكون الملوك دائمًا "فرق" مع "أدمغتهم" من الفلاسفة ويكون الجيش للقتال هو الأذرع ومنها Arm ذراع وArmy جيش، وحيث يكون الحرفيون والفلاحون والعبيد عبيدًا في خدمة السادة وحدهم، وأحذية وأقدامًا في أرجلهم.. كما بلغ إليه ذكاء الكاهن الملكي الفلسفي الباطني اليوناني "أفلاطون" في جمهوريته الفاضلة.. للملوك والأغنياء وحدهم!

ديمقراطية الطبقة:

ويتحدث الكثيرون في بلادنا بغير صدق، من جوقة المنشدين بالإفرنجي عن ديموقراطية اليونان التي هي المصدر الموجه لديمقراطية الاستعمار.. ديمقراطية مسرحية تتناقض مع معنى هذه الكلمة وهو "حكم الشعب" أو سلطة الشعب..

ولكن المؤرخ الهولندي فان لون يتحدث أصدق منهم عن أخبار هذه الديمقراطية وطقوسها، فتكتشف أنها الديكتاتورية السافرة، أو ديمقراطية الأثرياء، وأن نسبة هذه الطبقة ممن سموا أنفسهم بالأحرار إلى نسبة العبيد الذين امتهنوهم وتوارثوهم هي نسبة 15 بالمائة من عدد اليونان الأوائل الأحرار إلى 85 بالمائة من عدد العبيد الأشقياء الذين يقومون فقط بخدمتهم!

يقول هندريك فان لون وهو أيضًا من الفخورين – أوربيا – بالديمقراطية اليونانية التي سمحت لهولندا ببضعة ملايين أن تستعمر أكثر من 100 مليون مسلم في اندونيسيا .. إنه يقول "والمدينة الإغريقية لم يحكمها ملك، وإنما كان يحكمها الأحرار، ولم يكن هذه ليتأتى إلا

إذا توافر جيش جرار من "العبيد" يفوق المواطنين الأحرار، عددًا بنسبة ستة أو خمسة إلى واحد، ويقوم هؤلاء العبيد بجميع تلك الأعمال التي نكرس لها نحن المحدثين كل وقتنا وجهدنا إذا أردنا أن نعول أسرة وتدفع إيجار المسكن!!

ثم يقول "كان العبيد هم الذين يتولون الحيازة، وطهو الطعام، وصناعة الشموع اللازمة للمدينة كلها، وهم الحائكون والنجارون، وصناع الحلي، والمدرسون، وأمناء المكتبات – لا تعجبوا – وحفظة المؤمن والمشرفون على المصانع"!

ماذا كان يصنع إذن ذلك اليوناني الأول الحر، الشديد الحرية..؟ يقول فان لون أيضًا دون أن يرتد إليه طرفه خجلاً، أو أن يموت ضحكًا "هذا على حين كان يذهب "السيد" – الإغريقي الهيليني إلى الاجتماع العام لمناقشة مسائل السلم والحرب، أو لزيارة المسرح لمشاهدة آخر مسرحيات اسخيلوس، أو لسماع حوار عن الآراء الثورية ليوريبيديس الذي تجاسر على إبداء بعض الشك في قدرة الإله الأعظم زيوس"!!

أي عار أفدح في تاريخ الإنسانية من مستوى هذا العار، حيث تمتطى قلة من العاطلين الخرافيين المعربدين السخفاء ظهر أربعة أضعافهم من "العبيد" المقهورين بالطغيان والرعب ليعملوا في خدمة هؤلاء السادة البرابرة من زراعة الأرض حتى أمان المكتبات وإدارة المصانع!!.. وعندما حدث أن عددًا من العرب اشترى من أسواق الروم والفرس بعض أسرى الحرب الذين باعوهم عبيدًا وكانوا يسمونهم "الرقيق" تلطفًا بهم، ولم ينظروا إليهم نظرة عدواني بتسميتهم "البرابرة" كما كان اليونان والرومان يسمونهم.. ولم يكونوا قط لأنهم كانوا أحرارًا- يسخّرون الرقيق عندهم للقتال عنهم كما كان يفعل اليونان والرومان.. ولم يكونوا يحرمونهم قط

من أحسن الطعام، وأحسن الملابس وأحب الأسماء.ز عندما حدث هذا فتح المستشرقون الأوربيون وتلامذتهم "جاعرتهم" للتنديد بوحشية العرب .. غير المتمدنين.. الذين كانوا يستخدمون العبيد!!

ويقول فان لون وهو يعلق أوسمة الإعجاب "الاستعماري" و"الاستعبادي" على صدر اليونان الأوائل : "أما العبيد فهم جميعًا خدم بالوراثة.. وليس من شك في أن حالة هؤلاء العبيد الذين كانوا يحرثون الأرض كانت سيئة للغاية"!!

لقد كان حكم الطبقة هو الفكر السياسي الملتوي والسافر في كلمة "الديمقراطية" بمفهوم السادة الإغريق الذين حكموا عبيدهم حكمًا شاملاً، وأقاموا على أجسادهم جمهورية المتبطلين والطغاة، فكان أفلاطون قبل "فان لون" وأمثاله يرى في فترة نضوج جرائم الفكر الخيالي الأثيني، وإعلانًا عن تأثره بالمزاج الارستقراطي للسادة الحاكمين – أنه من العدل حرمانه العمال وأرباب الحرف من "حقوقهم السياسية"، بينما يرى أرسطو بنظرة تقطر تقززًا واستعلاء وتتهاوى تناقضًا وبغيا –أن الحرف الوضعية- كما يقول جورج سول في كتابه "المذاهب الاقتصادية": "تسبب الدمار الكلي للعمال، ومديري الصناعة على السواء أو ترغم أصحابها على أن يحبوا حياة العزلة داخل بيوتهم، أو أن يقضوا في بعض الحالات يومهم كله أمام النار.. وإذ تضعف أعصابهم يدب المرض إلى نفوسهم، وهذه الحرف لوضيعة ينتفى معها تمامًا وجود الفراغ، ونمنع الناس من المشاركة في الحياة الاجتماعية والمدنية، والنتيجة أن يصبح أمثال هؤلاء الناس أهل سوء، ولا يبالون بالدفاع عن بلادهم.!!

أن أرسطو يتجاهل أن السادة القساة الجشعين والمعربدين، الذين هو منهم وهو كاهنهم، هم الذين فرضوا استعباد هذا العامل والحرفي،

وأثقلوه بالأعباء، وانتزعوا منه أهليته للمواطنة، وجعلوه – مثل المرأة اليونانية- متاعًا حقيرًا يورث فاللوم هو على الطبقة الوضيعة التي رضيت باسم ديمقراطيتها هذا القهر وهذا التدمير لكيان آدمي، يعمل بغير إرادته، لمن ينكل به وبطبقته، ومن تزيده القوة نكالا له، وتضاعف أغلال سلطانه في يده وقدمه..!!

وهكذا يصدر الكاهن أرسطو.. كاهن الارستقراطية اليونانية قراره بأنه ينبغي أن لا تكون للعمال حقوق سياسية !!.. كما جرى في هذا المجتمع الأرستقراطي المخمور حرمان "المرأة" اليونانية التعسة من كل حقوق الحياة!

المرأة متاع:

مع أن المؤرخ اليوناني نيوسيديدس وهو يؤرخ لسقوط أثينا ذكر أسبابًا كثيرة تتعلق أيضًا بالمستوى الهابط للهيلينيين القدماء إلا أنه لم يذكر، وما كان ليدرك، أن أهم ظواهر الهمجية الهيلينية الأولى، وأبرز الدلالات على تمرغها الوحشي في اللا إنسانيات، هو موقف اليونان المنحط فعلاً من المرأة، ومن النظرة المهينة لها، التي تنزل بها كثيرًا عن مستوى الرجل. . والمقصود هو المرأة اليونانية التي يسمونها حرة بالاسم .. وهو المقوف الذي أصبح عامًا في أوروبا.. إلى وقتنا هذا .. رغم التشدق الكاذب بمكانة المرأة الأوروبية ومساواتها بالرجال .. سواء في الغرب أو الشرق!

يقول ول ديورانت في كتابه "حياة اليونان" إن الكثير من مفكري اليونان الأوائل في عصر نضجهم كان ينادي بأنه "يجب أن يحبس اسم المرأة في البيت كما يحبس جسمها" فلم يكن لها لذلك أي "دور" بارز في مسرحية حياتهم المليئة بالتناقض والخداع، بل لقد كانوا يمنعونها من الظهور على المسرح، ليس استحياء لحياتها، وصونًا لها، ولكن احتقارًا

وازدراء لها، حتى لقد كانوا يصنعون الأقنعة لوجوه النساء ليضعونها على وجوه من يقومون بتمثيل دور النساء، وكانوا لذلك، وبكل بساطة، يلجأون إلى خصي العبيد، وتحويل نخبة منهم إلى أغوات "كاستراتي" ليحتفظوا لهم بنعومة أصوات المرأة.. "المحتقرة" في الديمقراطية اليونانية.. الخادعة!!

ووظائف المرأة عند اليونان كما يحددها خطيبهم العظيم ديموستين هي بهذا الترتيب بحسب الأهمية في قوله : "إننا نتخذ العاهرات للذة، ونتخذ الخليلات للعناية بصحة أجسامنا اليومية- ونتخذ الزوجات ليلدن لنا الأبناء الشرعيين"! هكذا فقط.. كما تعلم ذلك، وتسعد به، جوقة المنشدين في بلادنا بالإفرنجي واليوناني على أبواب الدعاية لمسرح أوروبا!

والشاعر الهجائي سيمونيدس الأمورجي، الهيليني أيضًا، يصف المرأة اليونانية من وجهة نظر الرجل اليوناني، فهو كما خلقتها "آلهة السماء" كائن ناقص، وهي في أكثر أحوالها حيوان مزعج.. إلا ما ندر .. إنه يقول أو ينشد من نشيده الذي أورده احمد أمين في كتابه "قصة الأدب في العالم":

جعل الله عند الخلق طبائع النساء مختلفات

فجاءت إحداهن كأنما أخرجها الله من خنزير..

وأخرى كأنما أخرجها الله من ثعلبة ماكرة..

وأخرى كأنها هى الكلبة حركة ونشاطا...

تجو س أركان المكان فاحصة متطلعة

فأن لم تجد شيئاً أطلقت لسانها بالسوء

ولن يجدي فيها وعيد زوجها

كلا ولا يسكتها الغضب.. ولا حجر يلقى عليها فيحطم أسنانها ..!

بل وهي في ضيافة غيرها

تظل كالكلبة في صياحها ونباحها!

....

لقد صاغت آلهة السماء من تراب الأرض امرأة

قدمتها على نقصها للرجل زوجة .....

يعوزها العلم، فلا خيرًا عرفت ولا شرًا..

ولا تعرف عليها واجبًا إلا أن تأكل..

وإذا مستها لفحة البرد ارتعشت .. الخ... الخ؟؟!!

فهذه هي المرأة اليونانية في نظر زوجها الظالم البليد .. هذه هي أمه وأخته وابنته.. وهذه هي خليعته وخليلته وزوجته.. وهذا هو علمه هو .. وإنسانيته بعد أن فقدت المرأة اليونانية العلم والإنسانية .. وأين تجدهما في مجتمع السادة المخمورين .. العهرة .. والمتبطلين !؟

حضارة العدوان:

من هذا النبع المسموم الذي فاضت به حضارة اليونان الأولى في حدود مفاهيمهم الوثقيه والاستبدادية والأسطورية، وحيث لم يكن الإنسان يساوي بمعيار المساواة الآدمية أي إنسان آخر في الحقوق والواجبات – تفرعت شجرة الحضارة الأوربية بكل عوائقها وغرائبها ومظالمها كأنها شجرة الزقوم، ليصبح الإنسان في كل أشكال ديمقراطياتها، ونظم

سياساتها ومذاهبها إما أكبر من واحد في قمة الهرم الظاهرة أو الخفية، وإما أقل من واحد.. أقل من إنسان في القاعدة التي هي دائمًا أقدام وأحذية وعبيد النظام الطبقي..!

وبنفس القياس مع فداحة المفارقة أصبح الأوروبي العدواني بغير إيمان أو كابح، أو فطرة ، أو عدل- يرى بميراث الجنس الآري – أن الرجل الأبيض على قمة السلطات التي يتمتع بها في نظمه الاستبدادية الاستغلالية المتنوعة – هو فوق الرجل الملون والرجل العربي .. هو الأحق وحده بالحياة.. هو السيد الوحيد للبشر، الذي يحق له – كما كان حقا للمتبطلين في المدن الإغريقية – أن يملك مواد كل الشعوب.. وأن يمتهن في خدمته قرى كل الشعوب .. بالقوة العسكرية كما كان الحال في الاستعمار القديم .. أو بالإرهاب والتجويع والمؤامرات والغزو الفكري والثقافي.. والمسرحي والسينمائي.. كما هو الحال في الاستعمار الجديد..

إنه ما كان ممكنًا لإحصاء مذابح اليونان والرومان في عصور ما قبل الإسلام لولا أنه قد بقى لنا في تاريخنا الديني ما لا يمكن محوه من الذاكرة، ونكتفي هنا بمثال واحد على المذابح التي لم يتنازل عنها الرومان، مع تغير الظروف الموضوعية للخلاف الديني بينهم وبين المصريين اللذين خضعوا لهم نحو ستة قرون طويلة كألف قرن ، ملطخة بعار الرومان، ومخضبة بدماء المسيحيين المصريين!

لقد كان مقتضى الاستبداد الروماني في حضارتهم العدوانية أن يخضع المغلوبون لهم لنفس معتقداتهم.. تحت زعمهم العنصري بتفوق الرجل الأبيض – وعلى هذا نشبت هذه الصراعات بين الرومان وبين المصريين الذين كانوا رغم تبعيتهم للرومان عربًا أحرارًا في عقيدتهم الدينية.

وهكذا خلال ستة قرون من العسف الروماني جرت مذابح الرومان على المصريين في بداية سنة 68م التي قتلوا فيها مرقس الرسول في الإسكندرية وجروا جثته في شوارعها، وقد اشتملت على المراحل الآتية كما لخصها الدكتور مراد كامل في كتاب "تاريخ الحضارة المصرية":

1- فترة الصراع مع أباطرة الرومان الوثنيين حتى سنة 313م.

2- فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين للهرطقة من سنة 313 إلى سنة 451.

3- فترة الصراع مع الأباطرة المناصرين لبابا روما من 451 حتى 641 أي العام الذي حرر فيه عمرو بن العاص مصر من نير الرومان في مرحلة وحدة الوطن العربي وحريته وحرية اعتقاده تحت رايات الإسلام.

ونذكر بعد ذلك مما لا يمكن أن ينساه عربي وما لا يزال يرتعد لذكره كل إنسان طبيعي، ونعني بذلك هذه المذابح التي أقامها الأوربيون الأسبان باسم النصرانية، وأداروها على المسلمين منذ 1492 حتى سنة 1610، رغم شروط الصلح بين أمير الإمارة الأخيرة بالأندلس وبين الأسبان، والتي تقضي بتأمين المسلمين في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وأن يحتفظوا بشريعتهم وقضائهم، وأن يتمتعوا أحرارًا بشعائر دينهم، وأن تبقى المساجد حرمًا مصونًا.. لقد كان هذا أقل ما يمكن أن تؤديه أوروبا على يد الأسبان للعرب الذين أحيوا مواتها خلال ثمانية قرون.. ولكن من يكبح وحش العدوان في حضارة أرض الظلام والجليد.. أوروبا تلميذة اليونان والرومان؟!

يقول المستشار عبد الحليم الجندي عن هذه الفترة السوداء ووصمة العار من بين وصمات بلا حصر في تاريخ الحضارة الأوربية "لقد انقضى قرن وبعض قرن حتى سنة 1610 ذاق فيها العرب من العذاب ما لا تتساه البشرية من تنصير بالقوة، إلى إحراق الذين تنصروا، .. ولكن الحريق لم يبد العرب كافة فينصح كردينال طليطلة، وكان رئيسًا لمحاكم التفتيش، بقطع رؤوس من يتنصر من العرب، رجالاً ونساء، وشيوخًا وشبابًا، قولاً بأنه لا يعرف إخلاصهم في تنصرهم، ولما عارضت الحكومة في ذبح الملايين أمرت في سنة 1610 بإجلاء العرب عن أسبانيا، فجلا نحو مليون، وقتل في الطريق مئات الألوف، وارتاح الراهب "بيلدا" لقتل ثلاثة أرباع المهاجرين..." ثم يقول المستشار عبد الحليم الجندي متفجعًا :"لقد أفنى الأسبان من العرب ثلاثة ملايين من سنة 1491 حتى سنة 1610.. في حين لم يدخل العرب بلداً إلا وعمروه.. ولم ينشر الإسلام لواءه ليقتل النفوس.. وإنما ليحييها..!"

وأما ما شاهدته الأرض العربية من فظائع الحروب الصليبية، وما وقع من المذابح الجماعية في بيت المقدس فلا حاجة للتذكير به.. فهذه المهمة هي أبسط ما تقوم به اليوم جيوش أوروبا الإسرائيلية.. على أرض العرب.. من أجل نفس الأهداف العدوانية و.. والاستحواذية .. التي تتقنع، وتختفي كذبًا، وراء الدين.. وأي دين هذا الذي تسيل باسمه دماء الأبرياء.. ويستعبد الأحرار.. وتنهب الأرض والموارد من أيدي أصحابها.. ولكنها حضارة العدوان .. على جذور حضارة اليونان!!

حضارة الخمر:

من المعروف أن اليونان القدماء كانوا لا يشربون الماء إلا إذا تعذر عليهم العثور على الخمر التي يختزنونها في الأقبيه، ويعبون منها عبا بغير

حساب. وكان من أعجب ما انتهى إليه علمهم الديونيسيوسي أن الماء "ضار بالصحة إلى حد بعيد".. وهكذا سكروا حتى لا يضروا صحتهم.. وحتى لا يفيقوا إلى شيء يخجلهم .. وحتى لا يفزعوا من مظالمهم ومساخرهم وتناقضاتهم إذا انتبهوا إليها.. وحتى ترث عنهم شعوب أوروبا شرقًا وغربًا هذا الإدمان "الحميد" على الخمر.. وتنشأ وتنهار أيضًا بسبب الخمر.. !

لقد نشأت المسرحيات، ومن بعدها الأوبرات الغنائية، تحت رعاية الملوك والنبلاء المخمورين، وما ذلك إلا ليتمتعوا أكثر، وهم كانوا – حتى عصر لويس الرابع عشر الملك الشمس وقبل الثورة الفرنسية، يبدأون هذه المسرحيات والأوبرات بمنظر شبح خداعي هابط من السماء ينبه الحاضرين من زوار الملك أو النبيل، بالتفويض الإلهي الممنوح للملوك والنبلاء.. وكان المخمورون من صغار النبلاء والبطانة يسعدون في سكرهم باستمرار المسرحية الكبرى.. مسرحية الاستبداد في حضارة الخمر .. والعدوان!

من خلال الخمر كان يجري استغلال كل شيء لإخراجه من الصحوة إلى السكرة.. لإيقاف الوعي والثورة على الظلم.. ليبقى الاستبداد والقهر سائدًا حتى في عصور المسيحية ودعوة السلام والمحبة!

كان عصبة السكارى من حكام أوروبا وبالتحالف مع الكنيسة يستعينون بالخمر والموسيقى التصويرية، والقدامى اللاتيني ذي اللحن الثابت Canto fermo لكي يسدلوا على حياتهم الباغية من خارجها ستار الدين، والأخلاق والسلوك القويم.. والاستمرار في السلطان أيضًا بدون معارضة..1

ولكن على هذه الدعائم المسرحية كان الشعب خارج القصور وخارج الكنيسة يرى من بعيد، ويسمع.. ويفهم.. كان يرى أن الأباطرة وكبار رجال الكنيسة يعيشون حياة البذخ والتجاوز والشذوذ. بينما كان

الشعب خارج أسوار القصور والكنيسة، ومعهم صغار القس، يأكل لقمته السوداء مع الخمر الرخيصة.. كان يعيش محكومًا بنظام العبودية الثقيل الأغلال Servdum ولذلك فقد كانت له في ساعات سكره أيضًا أغانيه المعبرة عن واقعه الأليم .. ورده الساخر!

لقد استطاع الشعب من ثغرات عديدة أن يسخر من حكامه وجلاديه، فيصنع قداساته على نغم القداس اللاتيني الملكي محشوة بالألفاظ النابية والساخرة، من مستوى كلام الحانات والمواخير.. ليس عن ضيقه وتمرده ، وهو يخرج لسانه بهذا الأسلوب النغمي التمثيلي لمن يسلموا عليه.. ومثلوا به!

وجن جنون الآباء العظام .. ولكن ماذا كانوا يفعلون .. والشعب رغم ما ورثه من الخمر والإلحاد والموبقات كان لابد أن يطيح بالكابوس.. بالممثلين الكبار على مسرح شفائه.. وإن سقط مثخنًا بجراحه تحت الأنقاض من مواريثه كما لا يزال يحدث له في هذا العصر..

هذا وكان معلومًا أنه في حضارة الخمر كانت المجاري تتسلل أو تكسو الأسوار العالية والمغلقة حتى الأديرة.. ولقد نشرت فيما بعد أجزاء من أخبار مفزعة ، أو غريبة لا علاقة لها بأكاذيب الروايات الخيالية، تعيد على مسمع الأوربيين قراءة بعض تقارير كان رؤساء الأديرة يتلقونها عما يجري بداخلها في مناخ حضارة الخمر.. والتمثيل .. والاستبداد .. داخل القفازات الحريرية أو بالقبضات الحديدية عند اللزوم..!

تقرير مثلاً يقول "الراهبة فلانة .. كان الرهبان في الدير الفلاني يحزمونها لترقص لهم!! .. وفي اليوم التالي تقرير آخر يقول : شرحه!! .. بينما مع موسيقى العباقرة التعساء من أمثال باخ، أو الفجرة من أمثال فاجنر،

كانت تتنزل تلك الأشباح وأصواتها التي تعلن :وصية السماء: بطاعة الملك.. المخمور حتى أطرافه أنفه!

وبينما كانت الحروب تدور ليفنى فيها ويشقى الملايين من الجنود والفلاحين فان ماريا تريزا – وهي في حالة انبساط خمري – تجد من نشوتها وسعادتها إن تصبح في طبقتها من الملوك والملكات ساخرة بالحرب، ومتعالية فوق للم المتعة، والشعوب التعسة، الجائعة، والمثلوجة رغم النبيذ الرخيص والفودكا لتقول: "ما على الدول الأوربية إلا أن تثير الحروب فيما بينها" وأما عن النمساويين فإن علينا فقط أن ندخل في مصاهرات الزواج الرابحة"!!

في هذا الجو المعتم والظالم الذي ساد أوروبا بحضارتها المتفجرة من زجاجة خمر في يد باخوس إله الخمر اليوناني، وديونيسيوس إله الخصب الذي يعني وفرة الخمر- كان مؤلفوا المسرحيات وصانعوا أعظم الألحان الدينية، أو الدنيوية للكنيسة وللمسرح – فقراء تعساء أو فجارًا متسلقين –يحترفون الزنا إلى جانب احترافهم الموسيقى !

من المؤلفين الكبار العبيد في مجتمع حضارة الخمر المسكين يوحنا سباستيان باخ الذي كان يعمل مع سيده النبيل "ماركجراف براند نيرج" .. وعلينا أن نعرف أولاً أن كلمة ماركجراف Markgraf تحمل من آثار الحضارة العربية كلمة "جراف" بمعنى "شرف" فالنبيل الألماني الذي كان يحمل علامة الشرف والنبل لم يكن يعامل باخ في تعاقده معه بأي شرف أو تقدير.. هكذا التعاقد الذي ينص على أن يقوم باخ بالإنتاج الموسيقي اللازم للعزف في مناسبات سيده من زواج أو جنازة.. وان يعزف على الأرغن في المصلى الخارجي في قصر السيد، ويقوم بتأليف المطلوب وفقًا للأمر الصادر إليه.. !

وهـذا كلـه في مقابـل 85 جولـدن سـنويًا ، وثلاثـة مكاييـل قمـح ، وعيارين زيت، وحمل خشب، وست أحمال قش.. تسليم المنزل !!

وأما في هذا العصر فقد تجمع الربا السياسي والاجتماعي في حياة أولئك الحكام الأوربيين الطغاة ليغرق أحفادهم وذواريهم في الغرب والشرق في بحر من الخمر.. ومعها أخوانها البشعات من جرائم الجنس والعنف.. وأمراض الفصام والهلوسة والضياع!

في العدد الصادر من مجلة تايم الأمريكية بتاريخ 22- 4- 1974 تقول: "أن الشباب يتحول الآن عن المخدرات عمومًا إلى أشدها فتكا ، وأوسعها انتشاراً وهي الخمر.. والكثيرون من المفرطين في الخمر تقع أعمارهم تحت الحادية والعشرين، وأن من بين 95 مليونًا ممن يعاقرون الخمر بنسب متفاوتة هناك نحو تسعة ملايين من المدنين من شي طبقات المجتمع"!

ويعاني الروس بالضرورة نفس المرض اليوناني القديم، فالفودكا من أيام القياصرة كانت مع الاستبداد والخرافة سببًا من أسباب "الفقر والجهل والمرض" كما يقول انطون تشيكوف في قصته التصويرية عن الفلاحين.

وإذا كان الحزب الشيوعي قد حقق الشعب الروسي بعض النجاحات الاقتصادية والعلمية في مقابل حرية إرادة المواطنين، فإنه لم ينجح في استئصال الفودكا أو لم يفكر جديًا في استئصالها أو تخفيفها ، ذلك أن الخمر هي من صميم الفلسفة اليونانية القديمة بجزأيها المثالي الذي تفرع عليه النظام الرأسمالي، والمادي الذي قامت عليه النظرية الماركسية.

ومما يقال للتندر في هذا البلاء الذي حملته حضارة الخمر إلى ذويها من أحفاد باخوس أن الزعيم الشيوعي بريجينيف قال أخير لكيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة بمناسبة إنشاء أمريكا لمصانع المشروبات الخفيفة في روسيا: "ربما أمكن أن نعلم شعبنا أن يشرب فودكا أقل.. وبيبسي كولا أكثر"!!

تشريعات أوروبا:

والآن ننتقل إلى المجال الذي لا تستغني عنه جميع الدول في ضبط أعمالها وإدارة الحياة داخل مجتمعاتها، وهو مجال التشريع ووضع القوانين، لننظر إلى أي حد كانت عاهات الفكر الأوروبي، بتأثراته المستمرة من جذوره اليونانية – ظاهرة وجلية في هذه التشريعات التي ذقنا نكالها – نحو قرن من الزمان منذ أن مارس الإنجليز أكبر مظالمهم علينا سنة 1883 بتنحية الشريعة الإسلامية عن وجودها الفعلي في قيادة وإدارة حركة المجتمع المصري المؤمن.

لقد بلونا هذه التشريعات الأوربية التي كان عليها بالضرورة مهما تنوعت أن تعكس في موادها ملامح هذا المجتمع الأوروبي، اليوناني في الجذور، الذي يرى أن الزنا عادة مدنية، وأن الخمر ضرورة يومية، وأن العدوان إن كان من الأوروبي فهو عمل إنساني، وإن كان على الأوربي فهو جريمة لا تغتفر..!

وأترك للصديق المستشار عبد الحليم الجندي، المستشار القانوني بمجلس الشعب، والعالم الذي حقق بثقافته الإسلامية الواسعة وحدة الثقافة في فكر الإنسان المسلم فانتصر في نفسه وبمؤلفاته الإسلامية والقانونية على إرادة الاستعمار الذي شطر جسد الثقافة العربية الإسلامية إلى ثقافتين متنافرتين مدنية كما سماها.. ودينية .. أترك للصديق العالم أن

يتحدث عن طابع التشريع الأوربي الذي أوشكنا أن نتحرر منه، بعد تعديل الدستور، وبعد قرار مجلس الشعب بتنفيذ النص الخاص بتقنين الشريعة الإسلامية وتطبيقها في حياتنا كما كانت .. يقول المستشار الجندي:

"لقد كانت الجرائم في ظل القانون الإسلامي قبل أن يحمده المستعمرون قليلة، فلما فرضوا علينا القانون الأجنبي، الذي هو أشلاء قوانين أوربية من هنا وهناك زاد عدد الجرائم كثيرًا.. ومع ذلك بقت هذه القوانين تجسد في حياتنا أغلال الاستعمار التشريعي الذي يتوجب علينا إجلاؤه بحزم كما اعتزمنا"

"إن هذه التشريعات الأوربية في أكثر من دولة وشعب قد ظهر عجزها وقصورها تمامًا أما موجات الرذائل الناشئة في مجتمعها من ثمار هذه النظريات التي قامت عليها نظمها وتشريعاتها.. فكيف يجوز لنا وقد اهتزت هذه التشريعات الأوربية من أساسها أن نبطئ في استرجاع شريعتنا الإسلامية بالتقنين والتطبيق، وأن نبادر بذلك بالحيلولة دون اهتزاز مجتمعنا الذي تحافظ عليه.. والمثل ظاهر أمامنا..؟"

:إن المجتمع الغربي الذي نعمل بقوانينه المدنية والجنائية، والذي بلغ الأوج في علومه غير الاجتماعية، والذي يكتظ من عبادته للماديات بالأموال، ويعيش في غيبة الإيمان في ضياع نفسي واجتماعي يفقده نعمة الحياة والشعور بالأمن والسعادة .. هذا المجتمع يتخذ أمريكا مثالاً له وأما لسلوكه.. فماذا في أمريكا اليوم من آثار ضعف تشريعاتها؟"

"في أمريكا تدخل مكافحة الجريمة عنصراً أساسياً في البرنامج الانتخابي للرؤساء المتعاقبين للولايات المتحدة.. ذلك أنه في كل نهار يدخل السجون الأمريكية للمرة الأولى نحو 8000 سجين.. ناهيك بأفلام العنف والجنس التي أصبحت تحكم بآثارها المدن الشهيرة، فلا يجرؤ أحد أن

يمشي بعد الغسق في واشنطن العاصمة، أو في نيويورك، مخافة القتل أو السرقة والاغتصاب..

ومن ضحايا السرقة أعضاء في مجلس الشيوخ.. ولم لا .. والزنا بالمعنى المعروف لأعقاب عليه.. والخمر بدل الماء.. وقد بلغ عدد المصابين بالشذوذ الجنسي في بعض مظاهر انهيار هذا المجتمع في صحبة تشريعاته نحو أحد عشر مليونًا!" .. انهي كلام المستشار الجندي.

من أجل هذا الضياع، والتخطيط لانهيار المجتمعات العربية التي تأخذ بالتشريعات الأوربية فرض علينا الإنجليز بقوة الحراب انتزاع الحصانة التشريعية بإيقاف الشريعة الإسلامية عن الحركة ، وهي النظام الإلهي الذي كنا نمسك به وحدة مجتمعنا على النقاء، ونحفظ به سلامة علاقات هذا المجتمع، ونضئ طرقه إلى السلام والرخاء في كل عصر..

هذه الرواية التي لا يزال يمثلها تخطيط الاستعمار.. وتصبح بأدوارها أشباح تحت عنوان "المدنية الغربية" .. وتحت رايات "اليمين " أو "اليسار" .. وراء أهداف استئصال ذاكرة الأمة العربية، وقطع لسان لغتها، وإطفاء شمس كتابها، والحيلولة بينها وبين الحتمية التاريخية في بعث مقوماتها في بناء مجتمعها، والاغتسال من اللا دين في أفكارها، ومن أضغاث أحلام بعض مثقفيها – هذه الرواية المملة، التي تفضح زيف أصواتها/ وأقنعة أشباحها، وخداعية مشاهدها – أضواء شمس الصحوة، وطلائع صباح الإنابة .. هذه الرواية الاستعمارية بكل مراحلها وفصولها، وهمهمات ملقنيها، وضوضاء موسيقى الجاز الهمجية بين فصولها.. أليست لها نهاية يبدأ منها الواقع الحي بكل صدقه وأمانته؟ .. ألا ينزل الستار قريبًا على هذه المأساة الفكرية الهازلة.. وهذا الهزل المبتدع الأليم!؟

نعم.. فمع تدافع أمواج الصحوة بالإيمان تعود الشريعة الإسلامية إلى قلب الشعب ويده وموازينه.. ومع شروق شمسها من جديد تظهر وجوه الأوثان القبيحة، ويصبح "العيب" في نظر الأفراد الصالحين "عيبًا" في وعي كل المجتمع.. وتتحول المطابع إلى كتب أجدى وأنفع لصحوة الشعب من حشيش الروايات الخيالية.. وتتحول السينما إلى أداة تعليم وتثقيف.. ويتعرب المسرح فيذهب زيفه، وينطق فوقه من يخاطبون الشعب، وهن يواجهون معه مهم تقدمه، بلسان الصدق والعلم، ووحدة الهدف والطريق..

معنى هذا أن أول ما ينبغي إسقاطه، والتحرر منه، هو هذا "المسرح الاستعماري" الذي شيده الإنجليز منذ هزيمة عرابي في أكثر من موقع، وعرضوا عليه أكثر من رواية، وتكلموا فوقه بأكثر من لغة: وحققوا به وحاولوا أن يحققوا أكثر من هدف!

إن ذاكرة القارئ يمكن أن تسترجع الآن كثيرًا من الروايات التي أخرجها وعرضها الاستعمار على مسرحه في بلادنا، وتحت عناوين كثيرة غامضة، ولكنها عند التفسير واضحة تمامًا بوجهها الاستعماري، وبتناقضها مع وجودنا الموحد، ومع قيام مقوماتنا وازدهارها.. إنها عناوين تنكرية مثل "التحرر" و"التجديد" و"المدنية الحديثة".. عناوين صالحة لكل مذهب في كل عصر.. ولا يمكن أن تكون صالحة لنا إلا إذا باشرنا نحن تحديد هوية "التحرر" و "التجديد" و"المدنية الحديثة" في مجال علاقات المجتمع، وتنمية نوازع السلم والأمانة ، وتقليم الجنوح قبل استفحاله..

لقد أراد المستعمر لنا مصير الانهيار الذي أحاط بحضارته، واقتحم عليه مجتمع في ظل تشريعاته التي مارسناها، وعرفنا مدى علاقتها بالتصدع، ولغواية، وتنمية النزعات الفردية، والعدوانية، والاستخفاف بالقانون وحق المجتمع.. "لقد حدث" أن المصريين أخذوا في ظل هذه

التشـريعات الـتي فرضـها يتـابعون، ويتعـاملون، بياعـات ومعـاملات أوربيـة، ويؤاخـذون مؤاخـذات أوربيـة، ويعـاقبون عقوبـات غـير إسـلامية، وبـذلك لم يعـودوا مـع الزمـان يؤلفـون مجتمعًـا إسـلاميًا، كـذلك فـإنهم مهمـا كانـت بياعـاتهم وعقوبـاتهم أوربيـة فلـن يصـيروا أوربـيين . وإنمـا يصـيرون غـير مسلمين، وغير مصـريين، وغير أوربيين. وبهـذا يصـبحون امسـاخًا، وصـورًا مهـزوزة مـن الـذين يلـدونهم، وينسـلخون مـن الجماعـة الـتي نشـأوا علـى قواعدها، إلى جماعة أخرى غريبة عنهم يكونـون ذيولا لهـا: وهـذا مـا عنـاه المستعمر منذ ذلك التاريخ من سنة 1883"

المسرح الاستعماري:

معنى هذا كله أنـه ليسـت الروايـة الخياليـة والقصـص المسـرحية هـي وحـدها مصـدر الإشـعاع الـذري الأوربـي الهـدام لمجتمعنـا مـن الـداخل .. فالتشريع الأجنبي الذي فرضوه علينا كان أيضًا هو الراعـي غير الصـالح، لابس المسـوح الأوربـي، الـذي أفشـى فينـا بنظريتـه الأوربيـة لقوانينـه هـذا التمزق والضياع في علاقات المجتمع، وفي نوع إرادة التقويم والتوجيه لسلوك الأفراد، فأصبحت الخمر لأبنـاء النيـل العـذب- مشـروبًا مباحًـا بمسـتوياته للجميـع.. مـن السـبرتو إلى الكوكتيـل والشـمبانيا.. وفي مسـتنقع الخمـر، وهلوسـاتها، أصبح الزنـا شـريعة السـكارى، وأصـبح العنـف والشـذوذ طـابع الضـائعين من رواد الحانـة.. ووراء هـذا الغبـار الخـانق والقـائم يتكـئ أصـحاب الـدعوات الهدامـة للـدين ومقوماتـه، والحيـاة وأعبائهـا، ليتحـدثوا وينفثـوا، ويشيروا بأصابعهم.. ويصبح في كل حي جمعيـة للإصـلاح بـلا إصـلاح، وفي كل حارة داعية للحق بلا حق... ويتلفت النـاس في هـذا الشـعب الـذي صـمد للمـؤامرات والهجمـات الخارجيـة والداخليـة، واحـتفظ بوجدانـه القـوي العربـي، المعبر عـن اتجاهـه الـديني الإسـلامي- ليتسـاءلوا في هـذا "المسـخ"

الأوربي بالقوانين والمسرح الأوربي وأفلام الجنس والعنف، وحانات الخمر، وصالات عرض اللحوم البشرية بأثمان مرتفعة، وإنسانية رخيصة- ليتساءلوا: من نحن؟ .. وماذا نريد؟ .. وفي ركاب من نسير؟ ... وهل يتسق هذا الذي صرنا بخداع الاستعمار إليه مع هذه الأصوات الجليلة من فوق رؤوس المآذن والتي لا تزال تهتف في أسماعنا.. بمقياس وملامح" هويتنا" نحن.. هويتنا وأصالتنا العربية الإسلامية .. وبمنهج نضعه، ونطبقه، ونشرف عليه .. في ضوء هذا العصر.. ومع مراعاة متغيراته ..لتظل إرادتنا وقدوتنا على الاستباق نحو المستقبل حرة .. وراشدة!؟

لقد سقط المسرح الاستعماري في مناطق كثيرة .. سقط بتناقضه مع الحرية والأخلاق والعدل والعلم.. ويجب أن يسقط تمامًا في بلادنا.. ليس بعد أن يؤدي دوره ليقوم بعده من يؤديه، وإنما لكي ينتهي هذا الدور التمثيلي المخادع تمامًا .. لنستمر مسيرتنا القومية والحضارية، وتزداد وضوحًا وقوة، وهي تحقق مزيدًا من الانتصارات...

لقد سقط المسرح الاستعماري في مناطق كثيرة من بلادنا بعد أن ترك فيها جراحًا وآلامًا وقيمًا مضللة، ولكنه سقط.. وافتضح .. ويجب أن نستفيد من الدروس .. لقد سمعنا بالتأكيد عن مسرحية "لورنس شيخ العرب" الذي فادجيوش العرب لمحاربة الترك لصالح الإنجليز.. لورنس الذي لبس العباءة والكوفية والعقال.. وأخرج من بين البدو بطلاً أسطوريًا من عرب الأردن هو "عودة أبو تايه" .. وبهذا البطل الوهمي، المخدوع، انخدع كثير من البدو.. وأمكن في النهاية أن يدخل اختزال ؟؟ إلى فلسطين والقدس..

ويصبح الطريق مفتوحًا بانتداب الإنجليز – بعد الأتراك المسلمين – على فلسطين أن تبدأ الرواية الاستعمارية الأخرى لتحقيق الأمر الغريب جدًا

وهو إدخال البغل في الإبريق.. أي حشر الصهيونية باسم إسرائيل داخل ورغم وبذبح السكان العرب في فلسطين!!

ولقد سمعنا أيضًا عن مسرحية "جون جلوب" في الأردن أو "أبو حنبك" تلميذ لورنس، والذي بهذه الأمور بين البدو يعد خطوة لورنس مع الشريف حسين وأولاده – لكي تكون الحدود الطويلة شرقًا مع الكيان الإسرائيلي الداخلي مأمونة بقدر الإمكان. فمن هذه الحدود وحدها كان ولا يزال من الممكن إقلاق وإزعاج وإزاحة إسرائيل.. ولكن المسرحية كانت علاجًا لهذا المأزق مسرحية الاستعمار التي ألبست الإنجليزي الاستعماري جون جلوب ثوب البدوي، وعلمته اللهجة البدوية، وأتاحت له فرصة الجلوس الطويل في خيمة إلى شيوخ القبائل، وأبنائهم، ليصنع فيهم عملية تحول عكسي لشكل الحقيقة السياسية في عصرهم ، وذلك بتزييف جميع العناصر التي تتألف منها هذه الحقيقة.. وفي مقدمة هذه العناصر إزالة أي تخوف من جانب الإنجليز، ووضعهم في قلب الصورة المقدسة في أذهان البدو ليصبح الإنجليز ليسو أصدقاء العرب فحسب.. بل وأعظم وأحب أصدقائهم الذين يسهرون الليل، ويضحون بالمال وبأبنائهم في سبيل مصلحة "أقربائهم" العرب..!

لقد جلس جون جلوب ليالي ونهارات كثيرة ليزرع في نفوس البدو أن الإنجليز أصلهم من "قريش:!!.. ليست هذه مبالغة.. بل هي حقيقة مرة.. الإنجليز كما زعم جون جلوب المؤرخ الملفق للتاريخ الإسلامي العربي هم مثل حكام الأردن الذين يزعمون أنهم من قريش- من قريش أيضًا.. فكيف كان ذلك..؟!

اسمعوا العجب.. إننا نذكر بالطبع قصة جبلة ابن الأيهم أحد أمراء الغساسنة كما ترويها كتب التاريخ الإسلامي عن سيرة عمر بن الخطاب،

والتي تقول إن جبلة كان يحج في عهد عمر، فبينما كان يطوف بالكعبة وملئ إزاره رجل أعرابي، فلطمه جبلة على وجهه، فشكاه الأعرابي لعمر فأمر بالقصاص منه، ولطم الإعرابي الأمير الغساني اليمنى جبلة في قصاصه... وأسرها جبلة في نفسه حتى واتته الفرصة ففر إلى أرض الروم، ولجأ إلى قيصر .. وتنصر...!

اسمعوا العجب الذي يرويه بدو الأردن، وقد سمعته من بعضهم... أن الأمير العربي جبلة هذا قد تزوج من سيدة رومية مسيحية بعد أن تنصر... وأولاد هذه الزوجة المسيحية هم الإنجليز.. هم أجداد الملكة إليزابيث .. رضي الله عنها!

هذا الجزء من المسرحية الإنجليزية في الأردن.. المسرحية التي وضعت حكام الأردن مع شعب الإنجليز وقادته في أرومة واحدة – ماذا كان أثرها في الشعب العربي الأردني، وبخاصة بين البدو الذين هم القوة الضاربة في الدولة؟ البدو الذين لم يحدثهم أحد بتصحيح الأكذوبة المسرحية الإنجليزية، ولم يلتفت منهم أحد إلى أن الأمير جبلة يمنى قطحاني رئيس من قريش.. وأن الإنجليز هنود أوربيين وليسوا عربًا..!

ولكن هل تبقى المسرحيات طويلاً؟ .. لقد أدرك بعض البدو في الأردن أن هذا الإنجليزي الاستعماري يكذب عليهم، ويربى الكوادر من أبنائهم على شرب الخمر، ويرشوهم بكافة أنواع المغريات.. ولهذا فقد تعرض لإطلاق النار عليه في موقف مباشر، ومرت الرصاصة في وجهه، فأعوج فمه وسموه من يومها تخليدًا لهذا الرد على الأكاذيب "أبو حنيك"....!

رواية أخرى قصها عليَّ رجل من قبيلة بني عطية التي تعيش إلى اليوم بين العلا وتبوك رواية بمعنى الخبر الصادق عن امرأة من قبيلة الشرارات ذهبت إلى أبو حنيك أو جون جلوب تطلب منه المساعدة في العثور على نياق

لها نفرت أمام بعض سيارات الجيش.. وكان جلوب يعني كثيرًا بأداة هذه الخدمات، ويجعلها وسيلة مشتركة للدعاية وبث الأخبار، ومعرفة الأخبار.

جاءت البدوية ملهوفة تسأل عن جلوب الذي أطلق على نفسه اسم "الصاحب" أي الصديق العربي القرشي لكل رب.. وعندما اقتربت من مخيمة سألت عنه بلهجتها فقالت: "وين هو الصاحب إلى يقولونه؟...." وأبلغوا "الصاحب" فورًا فجاء إليها يسعى مرحبًا، ماد ذراعية ببشاشة وهو يقول "مرحبًا بالخالة .. مرحبًا".

قالت وهي تقترب منه تتفرس فيه :" حلايب تبدي وخذن".. تعني أن "النياق الحلوبات لأكبادها أي أولادها أخذن..." وكانت المرأة البدوية قد اقتربت منه تمامًا وهي ترى شعره الأشقر تحت الحطة أو الشماغ أو الكوفية، وتلمح عيونه الزرقاء شديدة الزرقة... قال وقد بدا عليه الاضطراب أمام ريبة البدوية فيه في حضور الناس: "أبشري يا خالة.." ... ولكن البدوية وقد روعتها غرابة ملامحه نسيت أبلها وقالت في استنكار صريح للإنجليزي الكذاب الذي مثل طويلاً على أرضنا، وبين ناس من شعبنها، دور الصاحب.. قالت المرأة الصادقة الشجاعة "هذي ما هي عيون صاحب.. هذه عيون عدو"!! وكلام آخر من معين هذا الصدق الذي تعيش به.. وتجاهد به.. وتنتصر به .. قالت هذه المرأة البدوية ...وغيرها... وغيرها... وكان لابد أن يسقط المسرح الاستعماري.. أو أن تهتز قوائمه بشدة ليسقط بعد أن افتضحت كل الأدوار... كان لابد أن تظهر المقاومة الفلسطينية الباسلة لتمحوا آثار أكثر المسرحيان.. والأكذوبات عن جبلة بن الأبهم الغساني.. أي الذي ينتمي إلى القبائل اليمنية القحطانية، وليس إلى قريش.. وتغسل الكثير عن أذهان الأردنيين الذين يطردون أخيراً أبو حنيك، وينتهون لمن بعده .. وكان لابد أن تكون المقاومة الفلسطينية مفتوحة لكل العرب..

وللأردنين في مقدمة العرب.. وأن يعبر العرب بالحرب أخدود الهزائم والمخاوف والأشباح الكرنفالية لقوة العدو.... ليحققوا بداية النصر في 10 رمضان 1393 .. تحت الراية نفسها... الراية التي سخر منها.. وخطط للالتفاف حولها أبو حنيك الإنجليزي المسرحي، الممثل، والمخادع، في كتابه المسموم رغم ما فيه من البريق، والذي جعل عنوانه "الفتوحات العربية الكبرى"... راية الإيمان.. راية العبور العربي: الله أكبر.

نعم .. من الحتم أن يسقط المسرح الاستعماري على أرض العرب.. مسرحه السياسي بمؤامرات التفوقة والتخريب .. وذلك المسرح الآخر الهابط الذي يقدم للعرب عقار الهلوسة .. وتخريب الفكر واللغة والعقيدة..!

أوهام المسرح:

كثيرة أذن هي روايات المسرح الاستعماري التي يمكن أن نتذكرها ونحن نتحرر، ونتوحد بالأصالة والعصرية.. في سيناء جرى بناء مثل هذا المسرح، وعمل عليه رجال أيضًا من المدرسة الكلاسيكية اللورسية أخرجوا عليه روايات عجيبة... ولكن المهم ونحن نتذكر كل إنتاج المسرح الاستعماري أن تقرر في جميع مناهجنا سقوط أشباحه الباقية بعوائها البشع في مجتمعنا داخل الأفلام الفاضحة، والمسرحيات الجانحة..

وربما كان من المفيد في ختام هذا الفصل عن المسرح الاستعماري أن نشير إلى عالم أوربي إنجليزي ظهر في القرن السابع عشر بعد أن هضمت أوروبا كل ما أمكنها استخلاصه من الحضارة العربية الإسلامية من منارة الأندلس، وبين مشاهد الحروب الصليبية وتروسها الدامية، وأهمها المنهج العلمي الذي جاء به القرآن وطبقة العرب، والذي يتناقض في نظرية القوانين وفي منهج التفكير والتعبير والحياة والعمران مع الفلسفة اليونانية وفكرها الخيالي نشير إلى فرنسيس بيكون الذي بسبب تأثره بالمنهج العربي، وما يتميز به من وضح التجربة الحسية موضع الأهمية في صناعة

البرهان على طبيعة الواقع، وعلى صحة القوانين المستمدة منه – أعلن رفضه للمنهج الفلسفي اليوناني القائم على "التجريد" و"الحدس" و"الظن" ... لقد أعلن بصراحة رفض المنهج التجريدي الذي عجز به اليونان قرونا عن التواصل إلى "العلم" وعن أداة الكشف عن قوانينه في الطبيعة التي فسروها بالخرافة، وعشقوا أنفسهم من خلال توهمت الحلول فيها، وسرقة خبراتها، والسكر بعصارة كرومها... لقد أسقط هذا المنهج في مقدمة محاولاته لتوجيه عنان الفكر الأوروبي باتجاه العلم، وصرفه عتما قادته إليه اليونان من متاهات الفلسفة..

يقول فرنسيس بيكون وهو يلخص رأيه في إسقاط المنطق اليوناني، كما أسقطه الأمام الشافعي من قبله بنحو عشرة قرون"إنه وإن كان المنطق اليوناني يجبر من يتابعه على التسليم بنتائجه الصورية إلا أنه لا يكشف في النهاية عن شيء جديد ، إنه ليس طريقًا للكشف العلمي، في الوقت الذي يبدو فيه وهو يجر "التجربة" من ورائه كما يجر الأسير" !!

من أجل العلم وبناء منهج عصر العلم، وعقلية الأوروبي العلمية، التي حققت للإنجليز السبق الكبير في ميدان الثورة العلمية والثورة الصناعية، بالاتجاه إلى الثورة بالفن الصناعي أو الثورة التكنولوجية، على كثير من الدول الأوربية، وبالذات على اليونان بلاد الأوليمب والسياحة التي تعيش حول ذكريات أرسطو وأسخيلوس والاكربول وراء أوروبا والعصر الحديث.. من اجل هذا الترشيد العلمي، وتخليص الإنسان الأوروبي من خرافات اليونان، وتنويره بحقائق عصر أوسع بالمفهوم العلمي من دائرة المصنع.. عصر يشمل بعلميته كل ساحات الحياة، وأنشطة الإنسان الإنسانية، وقدرته على الإدراك السليم، والتعبير القويم – وضع فرنيس بيكون منهجه الفكري الذي أهمّ أن يجعله وسيلة لتمكين الأوروبي من التصالح مع الطبيعة، ومن محاولة العلم الكامل بها، مع تيسير الوسيلة بمنهج استقرائي لتصبح العقول الإنسانية في مستوى واحد من حيث قدرتها

على تفسير الطبيعة، وبمعنى آخر تيسير نوع من اشتراكية العقول تجاه تفسير الطبيعة على أساس علمي إنساني، كالذي جاء به أساتذته العرب المسلمون، وليس على أساس فلسفي خرافي كالذي جاء به الهيلينون .. سادة الأسطورة والمسرح..

من أجل ذلك أوصى فرنسيس بيكون بالحذر من أوهام كثيرة.. أوهام تسبب الخلط في الفهم، وتؤدي إلى فساد فهم ما يسمعون.. وكان فرنسيس بيكون دقيقاً تمامًا، وصادق الإدراك العلمي إلى حد بعيد وهو يحذر من أحد أنواع هذه الأوهام التي أشاعها الفكر اليوناني الطبقي الخرافي في أرجاء أوروبا، والتي سماها في مذهبه الفكري الإصلاحي "أوهام المسرح"....!

لقد حذر فرنسيس بيكون منذ القرن السابع عشر من هذا المرض المضاد للعلم، وللرؤية العلمية ، وللبصيرة الإنسانية التي تلتمس التوصل إلى الحقائق العلمية من معين الطبيعة المتسقة بتدبير، والماضية إلى غاية.. هذا المرض هو "أوهام المسرح" الذي ربط بيكون أسبابه بكل وضوح بأثر المذاهب الفلسفية التي تبدأ بمقدمات خرافية، ثم تغرس أقدامها فيها، ثم تفتح فمها وتهذى باسم المعرفة .. بل والمعرفة العليا.. فهل يسمع أبناء حضرة العلم اليقيني في الدين، والمنهج العلمي في الحياة، لكي يتذكروا ماذا صنع بهم المسرح الاستعماري.. والاستعمار المسرحي.. فيتطهروا من "أوهام المسرح"... ويبرأوا منه مرض المسرح.. لكي نعبر عن حياتنا المؤمنة والجادة والصادقة .. عربيًا ... وإسلاميًا !؟

الفصل الثاني

وعندما نجحت الإرساليات
في الغواية بالفن الأوروبي
أغار الإنكشارية على تراث أوروبا
وأصبحوا قصاصين

نجاح الإرساليات:

بعد سنة 1860 اقبلت الإرساليات الأجنبية على بيروت فأنشأت كثيرًا من المعاهد وأهمها كلية بيروت التي وكل أمرها إلى مستشرق قس يسمونه الدكتور فانديك، وعلى يد هذا الرجل تخرج أول فوج من الصحفيين الذين تألفت منهم طليعة الدعاية للفن القصصي الأوروبي، أي" الذهب المسبوك" كما يسميه مارون نقاش – داخل الأقطار العربية، وأكثر هؤلاء الصحفيين شدوا رحالهم إلى مصر، قلب الأمة العربية وعقلها، حيث تم إنشاء المقطم والهلال والأهرام، كما صاحبهم لفيف من المترجمين مثل أديب اسحاق ، ونجيب حداد، الذي ترجم رواية إسكندر دوماس المشهورة "الفرسان الثلاثة" في أربعة مجلدات.

وفي أواخر القرن التاسع عشر حضر إلى مصر أيضًا كل من نقولا رزق الله، وخليل مطران، وطانيوس عبده، أما نقولا فالتحق بالأهرام، وعكف على ترجمة الروايات الأوروبية بأسلوب هين، فلما نجح الاستهواء عهد إليه بترجمة رواية طويلة تحت شعار "إبعاد الشباب عن مزالق الرذيلة" فقام في 30 نوفمبر سنة 1904 بترجمة رواية "سقوط نابليون الثالث" في أكثر من ألف صفحة، وقد أحدثت هذه الرواية أثرها المطلوب في أوساط الأدباء المصريين الذين كانوا يعانون أزمة الانفصال الطويلة عن جذورهم العربية في نماذج وصيغ التعبير الواضحة الرؤية للحياة والهدف، كما كانوا في أزمتهم أكثر قابلية لتغيير ازيائهم المهلهلة التي لا هي عربية ولا هي إسلامية، فسارعوا إلى استقبال الغزو الفكري والتعبيري الجديد، وفرحوا بما قدمه إليهم الغزاة من الحرز الملون، ولعب الأطفال، وتماثيل فينوس وكيوبيد رجوبيرا!

لهذا فقد أعقب هذا الحادث القصصي ظهور نتيجة بين المقلدين فنشط عدد من الشباب المصريين لترجمة الروايات على هذا الطراز، وأنشأ أحدهم مجلة باسم "مسامرات الشعب" كانما كان هذا الشعب الذي يجر أغلال الاستعمار، وأغلال التخلف، والجهل بالقراءة والكتابة والعلم، والفاقة، قد بلغ من الحرية والرخاء حدا يتكئ فيه ويسترخى ليستمتع بمن يسامره!

وعاد نقولا رزق الله وقد حمى وطيس الترجمة إلى إخراج سلسلة "الروايات الجديدة" ولم يلبث ان أنشأ زميله طانيوس عبده مجلة الراوي التي أخذ يعرب فيها الروايات الشهيرة المليئة بغواية البطولة الخرافية داخل حياة أوربية بحتة تغيب وراءها شيئًا فشيئًا أية رؤية للحياة العربية في لغتها وعقيدتها وتاريخها من ذاكرة القارئ العربي، فأخذت تظهر وتنتشر هذه المخدرات المقروءة من امثال "باردليان وفوستا" و "الملكة إيزابو" مما أنير به أكثر ما في النفوس الراهنة، والمصروفة بالعجز عن واجباتها، من الانفعالات الرخيصة، حتى لقد كانت الأسلاك التليفونية تهتز من أطراف القطر لسؤال المترجم المحترم عن خبر الوقائع التالية من هذه الروايات ... ومن هذه الملاحظة نفسها نستطيع أن نحصر القطاع الصغير من مترفي الأقطار الكبيرة في المدن. "قطاع السادة الذين يحتاجون إلى من يسامرهم ويسلبهم... مع يحتاجون إلى الاطمئنان إلى أن هذا "المخدر الخرافي" القوي جاهز لتخدير أي قوى شعبية محرومة من حق الحياة، وحق المساواة، وحق التعليم ، وحق التعبير بعيدًا عن الفرصة الطبيعية للتجمع الواعي من أجل انتزاع هذه الحقوق من السادة فرسان الإقطاع، وسكان القصور، من المستمتعين بخرافات باردليان وفوستا ، وعائشة أو هي والفرسان الثلاثة!

ثم كان للجعبة أن تفرغ، لأن التركيز لمهمة الإرساليات الأجنبية كان على الأنواع الرخيصة من المخدرات القصصية، فلم تنشأ الكتابة القصصية بالتفكير الخيالي الأوروبي نتيجة إرادة شعبية يحبها شعب محقق لتراثه وذاته، وصادق التعبير عن نفسه وحريته وعقيدته وأهدافه إلى الإطلاع والدراسة التحليلية والنقدية لآداب الشعوب الأخرى، حتى وإن كانت الشعوب الأوروبية... وإنما كانت هجمة التبشير بآداب أوروبا الوثنية مخططًا استعماريًا على أساس انتزاع هؤلاء العرب من ذاتهم، استهوائهم بالخرز، واللعب، والخمر اليونانية القوية بدلاً من خمير جوز الهند، لحساب التبعية المطلقة والعمياء للأوروبيين.. الذين هنا نحن هؤلاء أهم وقد علقوا هذا الخرز نفسه على جباههم،وهم يسيرون في أجيالهم القمصية الضائعة في أشكال قبائل جديدة للضياع... قبائل "الهيبز" أو "المرقين" داخل سراويلهم المرقعة للتعبير بالرمز عن أزمتهم النفسية التي ذهبت بوابهم .. وحلت بالسكرة الأخيرة لمدنيتهم .. مدنية الخرافة والخمر والحنا..!

فرغت الجعبة بالضرورة في أيدي السحرة من طلائع القصة الأوروبية، فانقبضت أيدي المترجمين عن موالاة المدنين بمطلوبهم، وكان الداء قد تنبه في مجموع المتعلمين من أبناء الطبقة في المدن، وهم لا يجاوزون جزءًا من الواحد في المائة، وكانوا وهم في الفراغ المسوم لهم لا يجدون مجالاً للانتفاع بما تعلموه، فأقبلوا على قتل الفراغ بقتل عقولهم وفضائلهم، وفضائل شعبهم، وعلى هذا فقد نشط منهم من أداروا عجلة الترجمة من جديد فظهرت أنواع جديدة من القصص المصنَعة محليًا أي القصص المغشوشة رغم أنها تحمل العلامات التجارية الأوربية، فهي علامات مزورة كهذه التي يحترف الآن تزويرها تجار الشنطة والسلع الترفية المستوردة في مثل شارع الشواربي، استمروا في نفس خطة الإلهاء والشغل والتخدير

بالتوافه.. وهكذا ظهرت مجلات تنشر قصصًا من أمثال وقائع نقولا كارتر واللص الشريف وهوكر... ومخترعات حافظ نجيب الخ!

ثم لم نكد تنتهي الحرب العالمية الأولى حتى كان الطفيلي القصصي الخيالي قد كبر في أحشاء العقلية الأدبية الأوربية الخرافية السائدة، وأصبح بعد الحرب طفلاً "يوأوى" ويطلب الرضاعة... يطلب مزيدًا من الأفيون والحشيش القصصي صناعة وتوجيه وتخدير بلاد بره!!

أضغاث الأحلام:

ومع الأيام والحضانة كان طفيلي القصة يكبر، وتصبح له أسنان.. ثم مع انتشار التعليم على الأساس الأجنبي الانفصالي بين المدني والديني كما وضعه الإنجليز – كان صوت القصص الخرافي يعلو، ويدخل في متاهات أكثر توقرًا وإيهامًا بالجدية، والتحليق إلى مستوى الأدب الرفيع. ومع ذلك فقد كانت قواعد المخطط الأول مستمرة ونشطة تحت كل الشارات، وهي تأليف القصص داخل قنواتها أو قواعدها الخمس لتكون قصصًا :ضد العرب، وضد الدين، وضد اللغة العربية، وضد التاريخ، ومع المدنية الحديثة.. ولكن بمفهومها الأوروبي!!

بهذه القواعد سادت موجات القصص في كل اتجاه عشوائي، بعيدة عن رقابة الشعب، وبعيدًا عن دراسة أمينة لهذا الأدب، وبغير محاولة لافتعال محاكاة الصدق – إن كان هذا ممكنًا قبوله بديلاً من الصدق – في إنتاج لا يتجه لخدمة أهداف الشعب المصري والأمة العربية، ولقد كانت القضايا حتى فيما كانوا يتشبهون به بالمذهب الواقعي، ومسرح المشكلة، ستارًا لما يتخلل ركاكتها من الدعاية المضادة لمقومات قيام المجتمع السليم بغير طبقة، وبغير تخلف، وبغير استغلال، وعلى أسس الدين واللغة،

والقوميـة والوحـدة والعصـرية بمفهـوم الإرادة الحـرة في حركـة الانفتـاح بالأصالة العربية على العصر المتحرك والمتغير..!

واستمرت الأحلام، أو أضغاث الأحلام، تظهر كالهذيان في الروايات الأجنبية المترجمة.. أحلام نستوردها من غابة الظلام والجليد الأوروبي حيث يرفعـون شـعار" محاربـة الجـوع والمـوت".. ويطلبـون الخلـود حتـى مـن طريـق السحر وتحضير الأرواح .. نعم في هذا العصر الحديث.. لأن الأوروبي الجائع لا يريد أن يتخلى عن سرقة الشعوب .. ولأنه يستمتع بخيرات شعوب الأرض الدافئة والخصبة والمضيئة.. فإنه لا يريد أن يموت!

نعم.. وصلت إلينا أوهام رايدر هجارد في قصصه الخرافية عن طلب الخلود مثل "بياتريس" و"كليوباترا" وعائشة أوهي" .. كما وصلت أضغاث الأحلام التي تطلب الخلود أيضًا من طريق القوة البدنية مثل قصص "طرزان" التي سحروا بها مجتمعات الشعوب الملونة، التي لم تكن تحس في مخدر هذه القصص أن "طرزان" ليس إلا رمزًا للأمنية غير الأخلاقية وغير الإنسانية التي تصعد نفسها من أعماق التخطيط الشرس لمستقبل الاستعمار في هذا الرمز الخرافي "طرزان " أبن أوروبا.. ابن الطبقة وسليل عصر الملوك والإقطاع والرأسمالية والاستعمار الذي يعطي الإشارة إلى أفريقية السوداء..

أرض المستقبل للإنسان الأبيض عندما تضيق أوروبا بسكانها .. وطرزان يعطي في نفس الوقت منهج هذا المستقبل وهو القدرة التي يدخرها هذا الأوروبي غير الإنساني لترويض الأفارقة القرود والوحوش من أجل أبادتهم.. والحلول محلهم .. من أجل محاربة الجوع والموت .. ثم الخلود .. الكاذب !!

فهذا هو الحوار بين أوروبا الاستعمارية وبين ضحايا المستقبل.. أوروبا الوحش الذي لازلنا نجد من يسجدون له في معبد أكاذيبه .. إذا كنا .. والحمد لله نجد بيننا دائمًا من يفطنون إليه، ويحسنون الحوار معه بالإرادة العربية المؤمنة الحرة... كما حدث ذلك في تاريخنا مرارًا، وعند الحاجة .. كما حدث عند ظهور مثل صلاح الدين، وعرابي، وجمال عبد الناصر، وأنور السادات لمواجهة أوروبا، والحد من أطماعها، باللغة التي تفهمها .. مع العمل على بناء الإنسان العربي باسترجاع أصالته له، وإيضاح هدفه إليه، وفتح الطرق أمام تحقيقه العظيم لذاته من خلال تعلمه وكفاحه وتقدمه..

الغارة الإنكشارية:

وكان لابد وقد وقع أكثر المتعلمين في الشتات، وتاهوا عن هويتهم قبل الثورة، وأحس أكثر الجيل الناشئ بعد الحرب العالمية الأولى، ومع وطأة الأحزاب، نشاط رسالة "المدنية الأوربية" في الجامعة، وسفور حملة التشكيك القاسية والظالمة التي قادها طه حسين في كتبه وفي الصحف وقاعات المحاضرات لإسقاط أهم المسلمات العربية والإسلامية، وهو ينكر صحة قصص القرآن عن إبراهيم ويتمحض في كتابه "الشعر الجاهلي" وما تلاه من منهجه عن هذه "الأقاويل الخرافية" التي عاش يموج بها تارة، وينحسر عنها تارة أخرى.. حملة تشبث الغريق بهدم مقومات هذه الأمة، وتراث أسلافها، وطمس شريعة حياتها – كان لابد من أن يندفع عدد غير قليل من إنكشارية صغار المؤلفين والمتأدبين ومن كبارهم، وإن لم يكن من السهل تعقب سرقاتهم – للإغارة على أرخص ما في التراث الأوروبي من القصص، ونسبته إلى أنفسهم .. فالقصة لم تكن قضية "أدب رفيع" يعكس ملامح وآمال شعب بقدر ما كانت هذه الهجمة الإنكشارية على م ستودع مباح علنًا بكل الإغراء.. مستودع الحشيش القصصي الأوروبي

الخرافي.. الذي تركه الاستعمار يقع بسهولة في أيدي هؤلاء "المحرومين" مما يعبرون به عن أنفسهم ، ليسهل فرحهم به كغنيمة .. كما كان جنود الاحتلال يبيحون في كثير من الأحوال سرقة معسكراتهم، ليتلهى الشعب الجائع بما فيها ، ولتموت فكرته عن مقاومة جنودها.. وإن كان ما كانوا يحذرونه قد وقع تمامًا عندما انقض الفدائيون المصريون في جيل الثورة وأزعجوا الوجود العسكري الإنجليزي في مصر مقدمة لخروجهم.. نعم كان لابد في طبيعة هذا الشعب أن يصحح أخطاء المنحرفين أو الضائعين من أبنائه .. فتظهر بعد شراذم اللصوص والمرتزقة – كتائب المجاهدين والملتزمة!

نعم .. ففي مرحلة تماثل مرحلة التفريخ ، والهذيان بأعراض الحمى، فوجئت مصر فجأة بظهور إنتاج ضخم من آلاف القصص "المسروقة" أو المنسوبة بالترجمة إلى روائيين أوربيين مشهورين تظهر به في كثير من الصحف والمجلات اسماء أدباء عظام، وقصاصين ملهمين ، يطلقون على أنفسهم تمجدًا وفخرًا أسماء "ديموسيه الشرق" و "موباسان مصر" و"جوركي النيل" أي من أمثال عاطري الذكر محمود كامل المحامي وأدوارد سعد عبده، وطاهر لاشين، ومحمود تيمور، وغيرهم وغيرهم .. كثيرون!

لقد كانت حرفة سهلة، ومريحة مع الشعور بالعظمة، المفاجئة ، والانخراط بحيلة رخيصة في سجل المزعوم خلودهم.. فما أسهل ببعض أعمال النشل الأدبي، وخفة يد القلم المحروم، وبمعرفة لا تتجاوز معرفة الترجمان عند الهرم باللغات الأجنبية تسمح بتغيير الاسم من أرمان إلى حسن، ومن ايرين إلى سلمي .. أن يصبح أصغر فنان ناشئ على قهوة أدبيًا خالدًا!

على سبيل المثال المتواضع فقط نذكر أن موباسان مصر نشر في مجلته قصة له بعنوان "ابنة الشارع" في سنة 1934 مع أن هذه القصة نفسها نشرت ترجمتها عن القصة الأوربية الأصلية في إحدى مجلات دار الهلال في نفس السنة تحت عنوان "ضحية المجتمع" من القصص الإنجليزي .. والفرق لم يكن أكثر بكل بساطة من تغيير في العنوان وأسماء الشخصيات..!

ولم يكن ذلك قاصرًا على الصغار من الأدباء فقد ظهرت مفارقات كثيرة من هذه الإغارات لأدباء كبار يحسنون لغة أوربية على الأقل مثل إبراهيم المازني الذي صنعن نفس الشيء بالنسبة لقصة إنجليزية نسبها إلى نفسه، ثم تطوع أحد أبناء الحلال فنشر الأصل المسروق والترجمة التي انتحلها المازني في كتاب واحد لإثبات هذا السطو المباح لسد الفراغ... وأي فراغ !!

حدثني الأخ والزميل حسن عبد المقصود المحرر حاليًا في جريدة الأخبار من ذكريات شبابه عن هذه الإغارات الإنكشارية التي أسهم فيها بحسن نية إلى أن تاب وأناب والحمد لله فرجع إلى منابع الأصالة في القرآن والتراث دينًا وقصصًا وأدبًا – فقال إنه كان يعمل في سنة 1926 وما بعدها في مجلة "السياسة الأسبوعية" ، وأنه جريا على مرض السرقة الذي يصيب العظماء أحيانًا، والذي ظهر في تلك الفترة وما بعدها كوباء أصاب الأدباء والمتأدبين – فقد نشر في هذه المجلة قصصًا كثيرة من وضعه واختراعه كانت من وجهة نظر، إلى الفراغ المحيط به "متنفسًا" عن متاعب حياته الأولى، وتحيرات عقله، وآمال نفسه، وانه كان لا يجد صعوبة أبدًا في ذلك العهد في أن يوقعها باسم مستعار له وهو ينسبها إلى "فيكتور هوجو" لتجوز على السياسة الأسبوعية من غير عناء، إذ تجد في اسم القصاص الفرنسي الشهير "علامة تجارية" تضمن الرواج للسلعة التافهة..!

على أن الأمر أصبح مع الزمن أكثر يسرًا في اختراع القصص المنسوبة، وذلك حين اهتدى الأخ حسن إلى ان يتجاوز اختراعه القصص إلى اختراع الكاتب القصصي نفسه، فأصبح يوقع مترجماته المزعومة باسم الكاتب الفرنسي الكبير "موريس فاليه".. الذي لا وجود له أبدًا في الواقع.. أعجب ما يحكيه الصديق من ذكريات عهد الغارة الإنكشارية نحو الإدعاء والانتحال والتأليف أنه فوجئ يومًا ما بأحد أصدقائه ينشر في مجلة أخرى قصة غريبة منسوبة إلى المؤلف الذي لا يعرفه أحد سواه، لأنه هو الذي اخترعه سرًا وهو هذا الموريس فاليه!.. على أنه أعجب من هذا العجب أيضًا أنهما وهما يتذكران ما وقع أن يصر القصاص الإنكشاري أمام صديقه حسن عبد المقصود على أن موريس فاليه، وحق جوبيتر.. قصاص فرنسي عظيم.. مثل فيكتور هوجو تمامًا الذي يعرفه المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل الأديب والمتذوق للأدب الفرنسي منذ كان رئيسًا لتحرير السياسة الأسبوعية عندما كان حسن عبد المقصود ينشر تحت إشرافه، ودون أن يميز الدكتور هيكل بين أدب هوجو وبين مخترعات شاب مصري ينفس عن نفسه.. بل وكان يؤمن ربما بأن موريس فاليه كان قصاصًا عظيمًا أيضًا .. من أدباء المدرسة الرومانسية مثلاً.. ولماذا تتزمتون!؟

ثم على المكشوف:

وكان لابد أن تتخلق في هذا التبه الخرافي الوضعي اتجاهات فكرية سافرة تبدأ في الإعلان عن التزامها المذهبي بمعتقدات أوروبا التي تعزل الدين عن الحياة والسياسة، وتصنع لها دينًا سياسيا جديدًا له مفهوم الحادي شرقي، أو مفهوم الحادي غربي... وهكذا نشط في مقابل الاتجاه الرأسمالي ذلك الاتجاه الشيوعي تحت عنوان دعوة جذابة للاشتراكية من طريق الإلحاد، وليس كما عاشها المجتمع العربي عصورًا طويلة بأسمائها

الصحيحة عن طريق الدين، وتحت عنوان الإيمان .. وفي صورة تقاسم المؤمنين المتساوين – أموال الله في أيديهم، حقًا مكتوبًا وحقًا سائدًا..

في كثير من الصحف، وفي صحف بعينها، امتد هذا التفكير الخيالي القصصي داخل مخيم جديد للهجوم السافر على الدين، والساخر من الرجوع إلى الدين، وتحت شتى العناوين النضالية التي يتم تحتها الخلط والتناقض، والعدوان على المقومات مثل "العالمية" و"التقدمية" .. وظهر مثل "المجلة الجديدة" التي أصدرها من قبل سلامة موسى، ومثل "الطريق" و"الطليعة" و"المكشوف" .. وأصبح الإلحاد المستورد، الإلحاد المسلح بإيديولوجية، وخطط باطنية، وأسلحة جدلية، وظلال قائمة بالإرهاب الدولي يسقط من بعيد على مجتمعنا النامي من معسكر شيوعي أوروبي قوي- أصبح هذا الإلحاد على المكشوف – واحدة ممن أخطر ثمار التحول بالمجتمع من خلال المراحل التي غزاها الاستعمار قبل الثورة أصبح هذا الإلحاد جلطة حقيقية في شرايين التقدم.. وعقبة بالغموض والتعالم السياسي أمام الطريق الصحيح لبناء مجتمعنا العربي الإسلامي.

وبهذه الجلطه الإيديولوجية المتسربة في العالم من حصاد العصر القصصي الاستعماري بلغنا مرحلة التعادل بالفكر الأوروبي الغريب على أرضنا بين من يرفعون راية الإلحاد الإيديولوجي الصريح أمام مخططهم الغامض عن العدل الاجتماعي باسم اليسار – وبين من يبطنون تحت راية "ابتعاث المحاكاة للغرب الرأسمالي" برنامج الإلحاد الاجتماعي الصريح، ومخطط الاستغلال الطبقي بمزايا التقسيط المريح، من خلال مخدر الرواية الخرافية، ومسرح الهلس.. وشوارع تملأها شوارب وهدايا ومقومات ومورفينات الشواربي .. باشا باسم اليمين!

هذا بينما يملأ صوت القرآن الكريم الآفاق، ومن مسجلات من شوارع الشواربي نفسه، ربما ليلعب دوره – كما يريدون في التهدئة

النفسية والعزاء وليس كما هو في رسالته رسالة الإيمان والتنمية العلمية والاجتماعية.. والرخاء.

ثم لقد كان هذا كله خلال مراحله الطويلة قبل الثورة يحكي حكاية الصحف، والمسلسلات القصصية، وروايات مسرح الاحتلال الهابطة، وهي تسير مجندة، وزاحفة ، لإحداث عجلة الانقلاب الفكري في حياة المصريين من أهل المدن باتجاه ضرب الوطنية، والقومية، والعقيدة ، مع كل جذور الإنسان العربي لكي يتحول إلى شبه إنسان ضائع، بغير هوية ولا أصالة، ولا عقيدة، ولا شريعة، ولا آداب للمجتمع، أو آداب في الثقافة.. إنسان كان يرى وهو في ثوب "الباشا" أو "العمدة" أو "تاجر القطن" أو "خريج أكسفورد أو السوربون" .. أو وراء هؤلاء .. أن معادلة حياته تظل صحيحة بقدر ما يجمع بين النمط الأوربي في الحياة، وفي التفكير ، وفي الأطعمة، والملابس واللهو.. وبين مفهوم المدنية والتقدم في ظل التحالف مع الاحتلال والاستعمار .. الأوربي أيضًا!

لقد كان هذا كله يحكي مواقف وظواهر بغير جذور على سطح المجتمع العربي السابق، حتى جاءت كلمة الله في كلمة الشعب.. وقامت ثورة جديدة سنة 1952 لتحقق خطوة أوسع، ورؤية اشمل.. وبدأت الصحف القادمة مع المد الاستعماري تخلع ثوبها، وتتجدد، وتصبح ولو في ظاهرها في ملكية الشعب.. وتعمل أساسًا في موضوع واحد هو تحرير وترشيد وتنمية هذا الشعب على أساس جذوره في العروبة، وجذوره في العدل الاجتماعي المستمد من عقيدته، ومن آماله في الوحدة التي هي درعه وسلاحه لمواجهة أعدائه في الدفاع عن أرضه وحريته، وعن دينه، وتقدمه... في صحوة يشرق بها تقدم العرب كلهم فوق الخمر، وفوق الأساطير، وفوق الخرافة والإثارة والمسرح!

الفصل الثالث

تحذيرات عصرية تدين القصص الخيالي

من علماء وأدباء أوروبيين وعرب

المواجهة قائمة:

لم نكن بعيدين عن الصواب ونحن نناقش قضية الفن القصصي الأوروبي الخيالي في هذا الكتاب، ونضعه – كما هو – بكل مخاطره، وأهداف المروجين له، في مواجهة المنهج القرآني في قصصه، وفي بيانه، وفي منهجه التعبيري بالخطاب المباشر الذي هو المنهج العربي فيما أكده التراث، وفيما حملت به الحضارة العربية خصائصها وعطاءها لنفسها، عبر كل العصور وللعالم..

إن هذه الأهداف المضادة للمنهج القرآني، وللأصالة التعبيرية العربية، هي أيضًا في أذهان واهتمامات واتجاهات الكثيرين من الأدباء العرب واضحة لهم تمامًا.. وقبل أن تسجل في هذا الفصل أصوات وآراء وتحذيرات الكثيرين من علماء وأدباء العصر عربًا وأوربيين – من المخاطر العقلية، والأمراض النفسية والاجتماعية، زيادة على تفكك الشخصية القومية، وانهيار اللغة والآداب في انتشار وباء القصص الخيالي الأوروبي – تقدم هذا المثال من أمثلة وعى التضاد لمنهج القرآن التربوي والقصصي، والترويج لعكسه، وإعلان الحرب الدعائية الظاهرية والخفية عليه في كلام أحد أعلام القصص في مصر وهو الكاتب محمود تيمور الذي نشرت له مجلة الشئون الاجتماعية في العدد الرابع من السنة الرابعة نص محاضرته التي ألقاها على بعض طلبة الأزهر وعنوانها "أثر القصة في التربية"..

يقول محمود تيمور في هدفه المباشر من المحاضرة: "جاءت الكتب السماوية بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وكانت المواعظ التي تبث، والخطب التي تلقى تتخذ شكل الترغيب والتحذير، والوعد والوعيد، في

أسلوب صريح، ومنحى واضح، فهي تمثل الطريقة المباشرة في الوعظ والإرشاد"!

ثم يتثنى محمود تيمور ليؤيد أسلوب القصص الأوروبي الخيالي في التربية ويراه هو الأفضل، وينسب فضل هذا الأسلوب – بأسلوب مباشر – إلى نفسه وزملائه فيقول : "إلا أن جماعة من أهل الرأي فطنوا إلى وسيلة أخرى لبلوغ هذا الهدف من طريق غير مباشر، دون استخدام الحض الصريح، والتنفير المكشوف، فكانت القصة الفنية مظهر هذه الوسيلة، وهي وسيلة في العرض والتعبير تفعل في النفس اكثر من الوعد المباشر، أو الوعيد المباشر"!!

وتلخيص ما أراده محمود تيمور من كلماته الدعائية للفن الأوروبي وأهدافه مجتمعة يتحدد في هذين المعنيين بغير لبس أو إبهام:

1- منهج القرآن الكريم، وهو نهاية ما يصل إليه البيان العربي لا يتمشى مع الفن القصصي الأوروبي الخيالي..

2- هذا المنهج المباشر لا يفعل في النفوس مثل ما تفعله القصص الخيالية والملفوفة التي لا تستعمل الحض الصريح والتنفير المكشوف!!

وطبعًا.. لم يتحدث محمود تيمور في محاضرته عن وجه المقارنة أو المباينة بين أهدافه هو ورفاقه من قصصهم المقتبس من آداب الغاليين الأوروبيين غير العرب، وغير المؤمنين، وبين غايات الدعوة والشريعة في منهج القرآن الكريم.. المباشر!؟

ولم يتحدث بالضرورة عن مدى حرجه، بل وفزعه ، لو أن الأسلوب المباشر قد عاد ليستقر في منهج الأمة العربية التعبيري، كما هو خصائصها وأصالتها إذا ما اتجه ضوء هذا المنهج المباشر إلى شخص

محمود تيمور في عمومه وخصوصه.. لينفذ بشاعة الكاشف إلى الكثير مما يحب أن يخفيه من أخطائه وضعفه، بعيدًا عن الحض الصريح على الاستقامة، والتنفير المكشوف من العيب!!

كان هذا في الأربعينات .. ولا يزال نفس هذا الصوت يرتفع متبجحًا بنفس هذا الهدف الذي يدمدمون به في كبرياء الدعى، وغيظ المأزوم. ففي السبعينات في 3 مارس 1976 يكتب كاتب الأوهام والأباطيل لويس عوض في بعض أباطيله، وتحت عنوان "المدنية لا تتجزأ" وهو يعني بالمدنية "أوربا" وخدها شكلاً وموضوعاً، وطولاً وعرضًا، وخيرًا وشرًا، ثم يسب كلما استطاع –مدنية الأمة التي ينتمي إليها، المدنية التي يسميها باسم العار المنسوب لسيدته أوروبا، والذي يلحسه وينساه.. يسميها باسم "العصور الوسطى" عصور ظلام أوروبا.. وأضواء وأنوار الوطن العربي على العالم!

إنه يكتب أو يهلوس فيقول من أحزانه المبرنطة والمرفهة من أجل دار الأوبرا المصرية التي احترق ومعها ذكريات عزيزة جدًا على لويس عوض تخص الخديو إسماعيل شخصيًا، والأمبراطورة أوجيني، وذكريات الميجل "فرعون" في قصة عابدة لفردي.. وأيضًا ذكريات عن عبثيات الملك فاروق في صالونه الخاص والسري جدًا لشئون الدولة الترفيهية العليا في دار الأوبرا كما يعلم كل من اشتغلوا بها، ألموا بأسرارها الدرامية مع حسناوات الفرق الأوربية المستوردة!!

يكتب لويس عوض في بعض هزاره السمج ليقول متظارفًا وثقيلاً جدًا في رواية أحزانه من أجل الأوبرا لا من أجل تعليم الفلاحين، وكسر عائق الأمية، وإعادة بناء القرية، ودعم اقتصاد مصر، وتنمية مواردها – فهو يقول: "إني منذ احتراق دار الأوبرا في سنة 1971 وأنا كلما قابلت إنسانًا متمديناً – يعني أوربيا – جددت معه هذا السؤال: كيف السبيل إلى

بناء دار جديدة للأوبرا؟ - يعني في مصر – وعندما كنت في أمريكا منذ عامين خرجت من كونسير للعازف "اسحق شترن" وحبست نفسي في بيني أربعًا وعشرين ساعة كتبت فيها بالإنجليزية نداء لمثقفي العالم لإنشاء صندوق دولي لأوبرا القاهرة الجديدة: وطلبت مني جريدة لاس إنجيلبس تايمز هذا النداء لنشره، ولكني ترددت ثم مزقت أوراقي وألقيت بها في سلة المهملات . وفي روما في العام الماضي تكرر نفس هذا الموقف. وكنت دائمًا أتراجع لأني في أعماقي أعرف أني رجل بغير صفة، فلم يكلفني أحد لأتكلم عن أحزان وطني، ومن فيه من المتمدنين – أي من موالي الثقافة والمدنية بمفهومها الأوروبي- " !!

ثم يقول مسترسلاً مع أحزانه وأحاديثه مع أصدقائه في أمريكا ومنهم إسحق شترن: "قال صاحبي الأمريكي: وما حاجتكم إلى دار الأوبرا؟.. أجبت : دار الأوبرا عندنا رمز ومؤشر .. هل يسأل سائل: وما حاجتكم لهرم خوفوا أو لمعبد أبي سمبل؟ هي رمز اتخذناه منذ مائة عام – أي بتاريخ بدء التدخل الأوروبي في شئون مصر في عهد الخديو إسماعيل والذي انتهى إلى الاحتلال الإنجليزي – رمز نستدل به على أن مصر جزء من العالم المتمدن – أي قطعة من أوربا كما كان يحلم الخديو إسماعيل – ودليل على أن جسور الفكر والفن والثقافة بيننا وبين الشعوب المتحضرة – أي أوروبا وأمريكا – قائمة لا تتقطع، وهي مؤشر إلى أننا نتقدم إلى الأمام، ولا نعود إلى العصور الوسطى" !!

وهذا هو المهم عند كاتب الأباطيل، ورجل الأحزان من أجل الأوبرا، وليس من أجل قيام شعب مصر بفلاحيه وعماله ومثقفيه على مقوماته الأصلية وليس الدخيلة.. المهم هو التراقص والاختلاج على أنغام موسيقى الجاز، وأوبرا الطبقة، باتجاه أوروبا .. بعيدًا عن أي قنوات يجب أن تهدمها

بإرشاد لويس عوض كما هو تفكيره دائمًا وكما هي عقدته – بيننا وبين الحضارة العربية الإسلامية .. التي ظهرت لتضيء العالم بمنهج حضارتها العالمية والإنسانية في الوقت الذي كانت أوروبا في العصور التي سمتها "الوسطى" تخوض الظلام، وتركع تحت المظالم - حتى أيقظها، وأنقذها : العرب المسلمون، فقامت تغير بمنهجهم العلمي منهجها الخرافي الأسطوري والأوبرالي .. ذلك المنهج الذي يعض عليه الآن بأسنان عقله المتمدين جداً – كاتب الأباطيل، وشبح العصور الوسطى الأوربية .. لويس عوض!!

الهستيريا القصصية:

في الرد على أمثال هؤلاء الكتبة ممن يمثلون بعض أحزان مصر الحقيقية يقول أحد علماء النفس المعاصرين عن القصة بمفهومها الخيالي الأوروبي وهو "بول باوزفيلد" في كتابه "مبادئ التحليل النفسي" وهو يحذر من القصة : كتابة لها وقراءة ، أو تعلقاً بمشاهدتها على المسرح:

"جميع من يكتبون القصة هم من ذوي التفكير الخيالي والتفكير الخيالي تفكير غير موجه، والخطر في الإفراط فيه يشبه خطر إدمان المورفين، كما أن فيه كل مساوئ وأضرار العادات، لأن هذا التفكير لا يمكن أ يظهر في نفس الوقت مع التفكير الموجه أو التفكير الحقيقي، وينبغي أن نتبين أن التفكير الحقيقي هو الأصل في تكوين الاخلاق، وفي التقدم الجوهري للعالم"!

ثم يقول : "إن اهتمامنا عند قراءة قصة ليس إلا نوعًا من التفكير الخيالي تخلط فيه أنفسنا بالبطل، ومثل هذه العملية الخطرة تحدث لغالبية الناس الآن في المسارح ودور السينما ، وهي في متناول اليد لمن يملك ثمنها الزهيد"!

ثم يقول "وقد يظن البعض أنها مفيدة للمجتمع من حيث ناحيتها التعليمية ولكن القضاة الذين يشتغلون في محاكم الأحداث يعرفون مقدار ما تسببه السينما في الأذى لعقل الطفل. ولا شك أن الآثار النفسية لهذه المخدرات العقلية ضارة بالغريزة الجنسية عمومًا أبلغ الضرر، والإفراط فيها يشجع عادة التفكير الخيالي بثمن زهيد ومثل هذه العادة تصبح مع الوقت جزءًا من كيان الفرد. فالسيناريو مثل الأحلام، ومثل الهستيريا، ليس إلا التحقيق الخيالي لرغبة ما عند المتفرج أو القارئ. ولا يقف الضرر عند هذا الحد، فإن الخيال يتجه في هذه الحالات إلى تحقيق رغبات مستحيلة، ورد الفعل العاطفي لهذا الخيال يرتفع كثيرًا عما يقابله من الأسباب الحقيقية المثيرة لهذه العاطفة ، فينتج عن هذا أن لا يقع التأثر العاطفي أو "المنصرف العاطفي" في موقعه الملائم من العقل الباطن، وهذا هو أساس كثير من الاضطرابات العصبية"!!

والانحلال العقلي:

ثم يستأنف بول باورفيلد في تحليله الدقيق والقاسي على أحلام مثقفينا المهسترين بالتفكير الخيالي في الرواية والمسرح هربًا صوفيًا من مواجهة الحقائق وعجزًا أليمًا عن التصرف بالتفكير الحقيقي حيالها.. فهو يقول "إننا هنا يجب أن نذكر أن الاضطرابات العصبية قد لا تصيب الأفراد فقط، بل أنها غالبًا ما تكون مرضًا يصيب الشعوب! وفي ضوء ما سبق نعلم أن الصحة العقلية للأفراد والشعوب يمكن أن تصان إذا احتفظ الفرد، أو الشعب، في الوعي بحقائق الحياة اليومية سواء أكانت هذه الحقائق سارة أو مؤلمة"!

ثم يقول :" إن التفكير الخيالي يتضمن دائمًا ضغط كل التفكير الحقيقي الذي يسبب الألم، فهو تجنب الحقائق ببديل لا يمكن تحقيقه"!

ثم يقول: "ويمكن منع هذه الحالة الخطرة، أو على العكس يمكن تشجيعها في الطفولة، حيث أن القصص الخيالية تعد في حياتنا "الأوربية" من امتيازات الطفولة، ولكنها في الواقع، وبرغم الفكرة الزائفة عنها هي آفة الأطفال المهلكة!!".

ثم يقول "وقد يسأل الإنسان نفسه ماذا عسى أن يكون من أمر الطفل الصغير لولا القصص الخيالية؟ وإن أمه "الأوربية" لتقص عليه واحدة منها كل مساء، فأجيبه هنا بأن الأم في كل مساء تربي في أبنها المسكين عادة تجنب الحقائق، وتشجعه على الاستعاضة عنها بخيالات قد تعرضه في المستقبل للكثير من المصائب والآلام !!"

ثم هو ينصح الآباء الأوربيين في ضوء أهمية "التفكير الحقيقي" وأخطار التفكير الخيالي فيقول من كلام لعله يفيد شيوخ القصة الكبار في بلادنا: "إن واجب الآباء في ضوء هذه الحقائق أن يجعلوا للتصعيد فرصة في تحويل القوة النفسية، فإن الطفل – مهما قيل من شأنه – يمكن أن يعتاد التماس اللذة من "التفكير الحقيقي" بنفس الطاقة التي يلتمس بها تلك اللذة الضارة من خيال القصص الخرافية، ذلك لأن هذه القصص على الرغم مما فيها من إشباع رغبة التمتع عند الطفل لا تؤدي إلى شيء غير الانحلال العقلي"!!

وهكذا فإن ثمار المنهج العلمي الذي كان بعض عطاء الحضارة العربية الإسلامية تعود إلى الأمة العربية على أقساط من علوم مختلفة في هذا العصر، ومنها هذه الحقائق التي تؤكد سلامة المنهج العربي الإسلامي والقرآني في "التفكير الموجه" و"التفكير الحقيقي" الذي يعكس الواقع الحي كما هو في صدقة، وفي دلالاته العلمية وأعبائه، وكما هو في آماله الواسعة أيضًا وفي خلود الإنسان المؤمن فيه..

هذا هو بعض ما تنبأ به علم النفس التحليل عن مصير "المتحدثين بالأوبرا" وبتماثيل الآلهة الكاذبة، وبالخرافة الوثنية في كل أشكالها اليونانية القديمة، والأوربية المعاصرة.. حتى في عصر العلم .. وهو ما ينبغي أن تتنزه عن الوقوع فيه بالبلاهة، ومع أصوات الأطفال الكبار العاشقين لثقافة أوروبا القصصية.. لتصاب شعوبنا بالخلل العصبي.. وانحلال العقل غالبًا !

مثل هذا التشخيص العلمي لردود أفعال "التخييل" الخطرة بعيدًا عن الواقع، في رواية خيالية أو أمام المسرح، أو داخل صالة عرض سينمائي، مما يترتب على تراكماته حالة "الانفصام" المهلكة بين التخييل الكاذب رغم حلاوته والواقع الحقيقي رغم مرارته – إن مثل هذا التشخيص لأمراض "الرواية والمسرح" معلوم ولا شك لدى القوى الاستعمارية في أوروبا، ولدى الأوساط العلمية فيها، ولكنها نعجز عن مقاومة التيار الاستهلاكي التي تضيع فيه النفس الأوروبية، كما تعجز عن تقديم البديل الذي لم تستطع حتى الآن أن تدركه وهو الإيمان الحق بالإله الحق ، ولكنها لا يفوتها أن تستخدم هذه الآفات "الخيالية " المهلكة بقوة وشراسة ضد ضحاياها من الشعوب المبتلاة بالاستعمار مثل الشعب العربي، وشعوب آسية وأفريقية..!

بهذا يصرح وزير المستعمرات الهولندي ألكسندر ايدنبورج عن مخطط هولندا الشيطاني ضد المسلمين في اندونيسيا، كما نشرت ذلك مجلة الاعتصام الإسلامية لقرائها في عدد المحرم 1396 ويناير 1976، حيث يقول الوزير واثقاً مما يفعل: "لابد من تحطيم الإسلام، وذلك بعرض آداب الغرب في نفوس المسلمين ليبتعدوا عن دينهم وهم لا يشعرون"!!

نعم ... وماذا في آداب الغرب غير الرواية والمسرح، والشعر الوثني؟ أي ماذا عند الغرب في آدابه غير هستيريا "التفكير الخيالي" وأمراض المسرح النفسية والعصبية، وما يصاحبها بالمضاعفات من الانحلال العقلي.. وهي الأمراض التي لم يتعرض لها – رغم كل ما تعرض له – ريفنا المصري، الذي لا يزال اهله يحافظون مع صحبتهم الطويلة والقسرية للفقر والمرض والتخلف – على أصالتهم ودينهم، أي على مصدر "التفكير الحقيقي" الذي هو كما يقول الدكتور باورفيلد "الأصل في تكوين الأخلاق، والأصل في التقدم الجوهري للعالم"

وجوههم للباطل:

ونعيد هنا مرة أخرى للتذكير بها كلمات مصطفى صادق الرافعي الذي وصف القصص الخيالية في تلخيص جامع لكلام باورفيلد بأنها "تفعل فعل المخدرات إذا تكون مسكنات عصبية ثم تنقلب بعد قليل مهيجات عصبية" ولم يستمد الرافعي هذا الإدراك الحقيقي إلا من منهج القرآن والأدب العربي في التفكير الحقيقي..

لهذا فهو يرد الحاجة إلى التسكين العصبي، والتي تصبح فيما بعد مرضًا عصبيًا إلى موقف مؤلفي هذه القصص والمتعلقين بها من البعد عن الحقيقة" وإدمان التوجه بوجوههم على الباطل.. فهو يقول : "ألا ترى ان من يكتبون هذه القصص الخيالية إنما يكتبونها مدبرين عن الحقيقة، وعن معنى الحقيقة؟ وأنت متى كان وجهك إلى الباطل، وظهرك إلى الحق، فمهما تتقدم في رأي نفسك فإنما تتأخر في رأي الحق"!

ثم يقول وهو يرد جميع أمراض أوروبا العقلية إلى فلسفتها غير العلمية – كما فعل ذلك فيما بعد أحد تلاميذ المنهج العربي العالمي – فرنسيس

بيكون .. يقول الرافعي: "لقد مات سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة والحكماء، وما استطاعوا أن يؤدبوا بحكمتهم وفلسفتهم إلا الكتب التي كتبوها"!!

أعذار للمستهترين:

وبنفس الاتجاه للتحذير يقول المرحوم الدكتور حسين الهرواي صاحب كتاب "النظريات العلمية في القرآن":

"بحث كثير من الشباب عن قصة مثل القصة الأوربية في الأدب العربى، فلما لم يجدوها تمنوا لو أنها كانت موجودة في تراث أمتنا العربية، وفات هؤلاء أن القصة بطبيعة التكلف في اختلاقها، واتجاهها على تعقيد البسيط، وتخفيف وطأة الواقع، والإبهام بوجود ما ليس موجودًا – لا تستطيع أن تعيش لحظة تحت شمس صحارينا المشرقة، وقضاء بلادنا الواسع المضيء، فمؤلفها لا يكاد يضع خيوط عقدتها الوهمية حتى تتبدد من بين يديه وتلاشى، ليبقى الواقع قائمًا جليًا أمام عينيه كما كان"

ثم يقول "لقد كانت جناية القصص الخيالية كبيرة على أخلاق الأمم والأفراد، لأنها قربت إلى أذهان أفكار الاستهانة، والتغلغل في السقوط الأخلاقي.. بل إنها التمست الأعذار الكاذبة للمستهترين الذين ما كان أحدهم مستطيعًا أن يلتمسها لنفسه متفرداً.."

ثم يقول " فإذا نظرت مثلاً لقصة مانون ليسكو، أو ذات الكاميليا، أو اعترافات فتى العصر، وغيرها من القصص التي تبرر الانحراف وتعتذر عنه للساقطين والساقطات، نجد أن هذه القصص قد أثرت تأثيرًا سيئاً على عقول النشء فجعلتهم يستهترون وينحرفون وينتحرون. ولا شك أن من أهم أسباب ضياع هذا الجيل الحاضر عقليته الضعيفة التي انتهت بها إليه

هذه التجارة الرخيصة في الحكايات الغرامية المثيرة والمبتذلة، والقصص البوليسية.."!

ضد موضوعية المسلم:

ومن كلمات موجزة وقوية الدلالة يقول الصديق المستشار عبد الحليم الجندي وهو يسجل رأيه في حديث معي في موضوع هذا الكتاب يقول فيها: "جاء المسرح إلى بلدان الوطن العربي مع المستعمرين والمستثمرين من أهل أوروبا من أجل فرنجة الأغنياء والطبقة في عصر الخديو إسماعيل، وبهذا بنيت دار الأوبرا، وعرفت القصور المراقص، وحفلات الباليه، والعراء شبه الكلي، أو العراء الجزئي"!

ثم يقول: "والمسلمون لا يستبيحون استعراض النساء على خشبة مسرح أو غيره. والمرأة هي نصف الناس، ولا يتصور المسرحيون مسرحًا من دونها. وجسدها عورة إلا لمحارمها، والمسرحيون لا يتصورون مسرحًا للمحارم! وقوام المسرح المأساة والملهاة وكل منهما يقومان على "الخيال" الذي لا يتسع له الواقع. والعرب " عمليون" وواقعيون بطبعهم ، وخيال شعرائهم من عصر المعلقات إلى عهد المتنبي والبحتري لا مصدر لصوره إلا الواقع نفسه. أما شوقي في مصر فإنه عندما ألف للمسرح فإنما كان يؤلف لبلد استوردوا له المسرح، كما أن شوقي قد قضى بضع سنوات يتعلم في فرنسا بلد المسرح"

ثم يقول "والمنهج العلمي الإسلامي منهج " موضوعي "يقوم على الواقع" واستعمال العقل، ولذلك نقلته أوروبا في العلوم . وإن إنقضاء ثلاثة عشر قرنًا على المسلمين دون الاقتراب من المسرح دلالة على واقعيتهم، وموضوعية فكرهم، وليس على قصورهم أو قصور خيالهم عنه. كما أنه

في الدلالة على الواقعية والموضوعية نقل العرب من علوم أوروبا ما وجوده من ذلك في القرنين الثالث والرابع الهجري.."

ثم يقول: "والقصص في القرآن تأريخ لحقائق واقعة يعلم الله بها الناس. والقصص ولفظ قرآني يشير إلى "الأثر" بمفهوم الاهتداء بالإتباع والتتبع لمعالم الطريق الصحيح.. طريق الحق.. الذي نعرفه بالقصص الحق"

الوقتي والتافه:

وأما المتخصص في الأوبرا والمسرح والموسيقى إلى جانب فنون مصر الشعبية وهو الصديق فرج عبد الرازق العنتري عضو فني هيئة السينما والمسرح والموسيقى بوزارة الثقافة ، وسكرتير عام نقابة المهن الموسيقية، فيقول مسهمًا برأيه في هذه القضية، وبعبارة أدق لإضاءة بعض الحقائق حول هذه القضية من وجهة نظر خبير في الموسيقى المسرحية:

"المسرحية بطبيعة جذورها اليونانية تحتفظ بالتخوم بين الطبقات، وهي تفعل ذلك في توزيع الأصوات الموسيقية، وفي الأدوار، وفي لغة الحوار.. فالتراجيديا التي بها ملوك وقادة وطبقة تختص في التأليف بتمييز الطبقة بمصطلح "الأفعال النبيلة" وبحذلقة الطبقة أيضًا في كلماتها المترفعة.. وإشاراتها من فوق إلى تحت .. أو إلى هناك .. وأما الكوميديا فلغتها أقرب إلى لغة العامة ولابد فيها من شخص مضحك، أو مثير بالإخراج الذي يظهر به للضحك، وبالطبع مثل هذا الشخص لا يكون من السادة"!

ثم يقول " إن المسرح بقصصه وإخراجه وموسيقاه كان ظاهرة ترف الطبقة بسبب كثرة نفقاته، وبطبيعة الهدف المستهدف به أساسًا وهو حفظ مناخ "العظمة " و"السلطان" للملوك والسادة .. مع الترفيه عنهمّ فلقد كان معروفًا في بلاط لويس الرابع عشر، أي حتى عصر متأخر، أن هناك

ستارة تهبط من سقف المسرح ومعها أشخاص يظهرون بالحيل المسرحية على صورة آلهة – بالمفهوم الوثني اليوناني – تدعو الناس الحاضرين لشهود المسرحية من بطانة الملك ونبلاء عصره – إلى الولاء والطاعة للملك الموجود أمامهم، والذي هو ظل الله في الأرض.. كذلك فقد كان راسم الشخصية المسرحية الكلاسيكية يحرص تمامًا على أن تعرض الرواية ملوك السيد وعباراته بما يوضح تميزه بالفهم، وتمكنه في الحياة، وقدراته الخارقة، وأنه لا يمكن أبدًا أن يسف فهبط إلى أسلوب عبد أو عامل أو خادم .. حتى على سبيل المرح"!

ثم يقول لتأكيد تبعية المؤلفين للسلطة في أمم المسرح مع تنوع أشكال السلطة حتى بعد أن تحولت السلطة إلى رأس المال والاحتكار، أو إلى الحزب والرقابة الإيديولوجية: "الملاحظ أن المؤلف المسرحي عاش دائمًا مثل زميله في الشرق وهو الشاعر المداح في عصور الانحلال.. المؤلف المسرحي عاش طفيليًا على موائد الملوك والسلطة في كل عصر.. وإن لقبا مثل "مطرب الملوك والأمراء" هو أحد ألقاب البلاط القديم.. المسرحية إذن كانت دائمًا هي صورة قيام السلطة بمهمة تمجيد نفسها حتى وإن كانت تفعل ذلك باسم الشعب"!

ثم يتحدث عن بداية ظهور سلطة الشعب قبيل الثورة الفرنسية، وأثر ذلك في تصاعد السخرية الشعبية المعبرة بمصالحها عن الواقع لتهز تقاليد الطبقة، وتفضح "تمثيلهم" وتنتزع أو تحاول أن تنتزع الساحة منهم فهو يقول عن نجم شعبي في التأليف المسرحي هو بومارشيه:

"إن بومارشيه يعتبره النقاد أول من أطلق شرارة الثورة الفرنسية، فهو أول من وضع على المسرح لحساب الشعب شخصية الإنسان الشعبي

"الفهلوي" الجريء اللسان الذي لم يكن موجودًا من قبل داخل القصور، او يتجرأ أن يكون، وهي شخصية الفيجارو.."

"قامت قصة بومارشيه "زواج فيجارو" على أساس إعلان تمرد عامة الشعب على واحد من القيود المهينة للعبودية للسيد النبيل،وهي أن يقدم المواطن "عروسه" للنبيل قبل أن تزف إليه، ليتفضل النبيل – من غير نبل بتذوقها نيابة عن تابعه، وافتضاضها وتقديمها له بعد ذلك.. وكانت هذه الجريمة في أوروبا حتى نهاية القرن الثامن عشر تسمى "حق السيد" .. ومن البداية يعمد الإخراج الموسيقي إلى رسم شخصية العامي المتمرد على سيده بنغم طليق، رنان فصيح، يثير التعاطف معه أكثر مما يثير عاطفة الطاعة للسيد المغتصب.. وكان هذا دليلاً- رغم تأخر الوقت – على بداية تطور في المجتمع الأوروبي وأفكاره للدلالة على اتجاه الشعب لانتزاع المسرح من السلطة وتمكين فيجارو من الهرب بعروسه – لأول مرة على المسرح – دون أن تتعرض العروس للمرور عارية تحت قوس النصر في غرفة النبيل قبل أن تصل إلى عريسها.."!

ثم يقول الصديق فرج العنتري في ملاحظة دقيقة "على أن العجيب أن بون مارشيه الذي تربى داخل قصر من القصور، وكان حرفيًا في الأصل، والذي اتجه بعمله الفني لاشعال الثورة على النبلاء من أجل مساواتهم بالشعب عاد بعد الشهرة والمال فتمرد على هذه المساواة العامة، وقد كان في نكسة شعوره بالمساواة جريئاً ووقحًا في نفس الوقت عندما قال في الترفع عن كل الفيجارو في فرنسا: الحرية نعم.. الإخاء نعم.. أما المساواة بهذه الصورة.. فلا!!"

من أجل هنا بدأ المسرح الخرافي، والطبقي بطبيعته ، يتهاوى ليسقط في عصر الشعب الذي أيقظه العلم إلى حريته، وكان أحرى أن يحقق له

أمانة وسلامة ببعض الإيمان الذي عجز عنه فعاش يطلع بعلم من غير إيمان.. وفي مصير المسرح يقول فرج العنتري "وعلى الرغم من تزايد مراكز التجمع المدنية في المدن فإن عددًا من المسارح المحترقة قد أصابه الركود القاتل خلال هذا القرن، فلم يبق إلا نشاط فوق الهواة. وعلى الرغم من الفيلم والراديو والتليفزيون التي تقوم بإخراج أعداد هائلة من الدراما بمختلف أنواعها، فإن أكثر ما يتم أخراجه بهذه الوسائل وقتي وتافه، ومع هذا فجيب أن نتذكر أن المسرح – كأداة تسلية – كان دائمًا يحتوي على نسبة كبرى من المؤثرات الوقتية.. ومن التفاهات !!"

بين الشبقية والعهر:

ونذكر من حديث الدكتور حسين فوزي في الأهرام وتحت عنوان "السينما الفاضحة" بتاريخ 22 فبراير 1976 كلمات للتحذير من هذا الاتجاه بالنسبة لما أصبح يجري في السينما – حفيدة المسرح المعربدة – في مصر.. تسابقا بالتقليد الفاضح مع ما أصبح يجري في السينما الأوروبية في هذا الاتجاه..

يقول حسين فوزي : "الأدب أو الفن الحديث في أرقاه إذا ما عالج غريزة الجنس يمكن ان يوصف بأنه "شبقي" وفي أحطه يدمغ بالعهر"

ثم يقول "كانت السينما حتى عهد بعيد لا تسمح بتصوير "القبلة" بين العاشقين إلا لفترة جد محدودة. وإذا بالفن السينمائي ينتهي بعد الحرب العالمية الأخيرة إلى السماح بتصوير الفتى الأول مع فتاته تحت أغطية الفراش فلا يظهر من عريهما إلا ما فوق السرة.. ثم انتهى ذلك في السنوات الأخيرة إلى كشف الأغطية أمام الرؤية المباشرة، وبهذا تحول الوصف

الروائي – مثار الخيال – إلى الواقع مرئيًا مسموعًا فيما نصطلح عليه : عيني عينك!!"

معنى هذا في مسار ومضاعفات "الفصام" بالتفكير الخيالي بين المربي والمسموع بالخيال والمربي والمسموع في الواقع – أن هذا الفصام والانفصام قد بلغ أقصى درجاته في أكثر مراكز الإثارة العصبية حساسية وهي "الجنس" حتى أصبح من الممكن – عيني عينك – رؤية الفعل الفاضح في أشد فتكاته يبدو، وهو مجرد خيال، كأنه وقع في الواقع المرئي والمسموع، وعلى مشهد من مجتمع يسبغ عليه حكم اليقين .. بينما هو خيال.. خيال أفرزته "الهستيريا الجماعية" فأصبح على الشاشة الصهيونية هو هذيان المجتمع الذي يتزف عقله أمامها بينما يتسرب واقعه من بين يديه .. ربما إلى الأبد .. بقروش زهيدة!

ويتحدث حسين فوزي عن فزع المسئولين في أوروبا أمام هذه الموجة من الفن العاهر المدمر لمجتمع بأسره، فيذكر أن وزير الثقافة الفرنسي استصدر قانوناً حاول به أن يحد من حرية المنتجين لمقاومة ارتفاع موجة الجنس في الأفلام الفرنسية، حتى لا تتجاوز ما وصلت إليه وهو ثلث الإنتاج السينمائي، وكان أسلوبه هو تخصيص أماكن معينة لعرض أفلام الجنس.. فقط لا غير .. ومع ذلك احتج عليه بعض من يدافعون عن العدوان بالحرية وسألوه لماذا فعل ما فعل.. واعتبروا التقويم عدوانًا على الحرية!

يقول حسين في فوزي وهو ينقل إجابة الوزير على من احتجوا عليه: "إذا كنا سنترك الحبل على الغارب فإن جماهيرنا ستنتهي إلى ما انتهت إليه ألمانيا الغربية من عدم التمييز بين دور السينما، وبيوت الدعارة" !!.. هذا هو كلام وزير ثقافة معاصرة في بلد أوروبي شديد العصرية!!

التنفير من الدين:

ويتكلم أنيس منصور عن المسرح والسينما في مصر من جانب معين هو الروايات الدينية التي لاحظ نزول مستوى التمثيل فيها للشخصيات الدينية إلى حد من الامتهان يثير التساؤل، فهو يمزج أسلوبه الساخر بقليل من الغضب ليسأل في كلمة أعادت نشرها له مجلة "المسلم" بعدد المحرم سنة 1396 حيث يقول:

"لماذا.. في كل التمثيليات الدينية ،أو حتى الأفلام الدينية ، نجد أن من يقومون بأدوار الأبطال المسلمين ، المقاتلين من أجل الإسلام – يخرجونهم في صورة مجانين متهوسين، غلاظ الصوت وثقلاء؟ .. المفروض أن هؤلاء الذين ينشرون الدعوة، ويدافعون عنها ، ويقفون أصعب المواقف التاريخية من أجلها – هم مثل عليا لكل الناس، حيث لا تجري على ألسنتهم إلا أجمل العبارات، الدالة مع حركاتهم على النبل والرقة والكياسة والعقل"

ثم يقول"لابد أن الدين عند المؤلفين والممثلين والمخرجين له معنى سخيف جداً ، ولابد أن يكون مفهوم الجدية في الدين عندهم هو أن يكون الإنسان ثقيل الدم.. ولذلك ألصقوا بالشخصيات الدينية كل ما ينفر الناس من الدين، والدعوة الدينية.. بينما احتفظوا بخفة الدم للصوص والمجرمين .. والعشاق:!!

.. كلام صريح لا يحتاج إلى تعليق.. فقط نذكر القارئ بما قلناه من قبل عن الجذور الوثيقة للمسرح ومشتقاته .. وعن "دور " الرواية والمسرح والسينما في جراب المخطط الصهيوني والاستعماري.. وبالذات نجاة الإسلام كما نذكر القارئ بتلك المرحلة التي شاهدتها مصر خلال الحربين

العالميتين الأولى والثانية حيث كانت الشخصية "المضحكة" بتوجيه نا في المرض المسرحي هي دائمًا، وبجميع مستويات الإنتاج المعروض، شخصية الشيخ المعمم... المأذون، أو مدرس العربي، أو قارئ القرآن.. والمشهد الذي يضج له سكارى شوارع المسرح بالضحك – كما رباهم الاستعمار على ذلك – هو العرض الشهير عن "الفقهاء الثلاثة " الذين كانوا بكل ما يلقيه العملاء والجهلاء على ألسنتهم وهم ينتحرون قوميًا وهو بذاءته وسوقيته وهبوطه المتعمد صراخ هستيري حاقد ليس له تلخيص إلا أنه سب للإسلام على أرض عاصمته العربية "القاهرة" .. وسب بالضرورة واحتقار للمسلمين في هذه البلاد... واستخفاف وسخرية بالقرآن الكريم تنتهي من كتب المستشرقين إلى هذا التجسيد للحقد الصليبي على العرب بلغة فن الوثنية والخمر والعهارة ، المنحدر من غياهب الخرافة اليونانية.. نعم هو هذا التجسيد للحقد الذي لا تبرا منه سياسة أحبار الصهيونية، وزعماء الاستعمار.. حقد أسفروا عنه طويلاً.. وإن يكن أمام جمهور السكارى من العمد، ولصوص المعسكرات ، وموالي الثقافة الأوروبية وفنونها الساقطة.. ولا تزال تقاليد هذا المرض الاستعماري تعاود مخرجي التمثيليات والأفلام الدينية. حيث يعتبرون أن كل شخصية إسلامية في التاريخ، أو كل عالم ديني في المجتمع، هو واحد بالضرورة من "الفقهاء الثلاثة" الذين كانوا يظهرون لإضحاك الجنود الإنجليز في شارع عماد الدين، وجمهور العمد وتجار القطن والقوادين .. وإلا فمن يكون!!؟

إفلاس المسرح:

وكان لابد أن يفلس المسرح أخيراً في أوروبا بعد أن أدى "دوره" في عقوبتها ، وانتهاك قواها.. وبعد أن أسلم شعوبها من طريق السينما إلى مرض الانهيار التحمي.. إلى التثليث الفاتك في "الخمر والجنس والجريمة" ..

لقد أفلس المسرح الأوروبي الذي ظل قرونًا طويلة "مصونًا" وراء أسوار الملوك والإقطاعيين عن أعين العامة، وعن تلويثهم لرحابه.. ثم مع العلم الذي جاء منهجه إلى أوروبا من أرض "التفكير الحقيقي" ومع حضارة العرب المسلمين نهضت هذه الشعوب على أنقاض أربابها، وسقط الترف المسرحي، وأفلس التأليف الرفيع بمستوى تملق شهوات الملوك الذي يدفعون بسخاء للمؤلف، وواضح الموسيقى، وجوقة الممثلين والممثلات، لتظهر من داخل الشعوب طبقة جديدة من ملوك المال، الذين من أجل المال: ومن أجل السياسة أيضا أمسكوا بزمام هذه الشعوب من غرائزها الدنيا.. وكان العلم مع ثورته وثورة الشعوب قد جاء بالسينما.. وبقوة الصهيونية داخل شعارات وفلسفات الحرية الزائفة من وجه، والعدوانية من وجه آخر.. وبذلك أغلقت أبواب المسرح القيصري، الذي أصبح وثقًا ومزاراً للتذكار.. كما أغلقت أبواب المسرح الواقعي، أو مسرح المشكلة الاجتماعية، وحتى المسرح الوثائقي الذي جاء به بريخت الألماني في موقف وسط بين الحوار غير المباشر بين الممثلين على المسرح، وبين الخطاب المباشر بين الممثلين والجمهور.. أي بين الأسلوب اليوناني والمنهج العرب.. ذلك أن الجميع في أوروبا فزعوا من هذا المنهج ... فزعوا من يقظة الشعب عبر أسلوب جديد يتخطى الإغراق في التمويه، والاستدراج الخيالي ، والأهداف الخداعية – إلى التفكير العلمي والخطاب المباشر، وجهها لوجه عبر الممثلين، بين المؤلف والجمهور.. المؤلف الذي يواجه الجمهور بأفكاره السياسية والاجتماعية ليقوده على أرض الواقع، ويوجهه إلى أهداف حقيقية مطلوبة في الواقع.. لقد فزعت أوروبا كلها من هذا الخطر.. خطر صحوة الشعوب فوق أنقاض صناعة التمويه المسرحي، وتراث وكهنة وكذبة المسرحين اليونان الأوائل، والأوربيين الأواخر.. لقد فزع الشيوعيون مع أن بروتولد بريخت كان شيوعياً أو

اشـــتراكيًا .. وفـــزع بـــالطبع ملـــوك الاحتكـــار ورأس المـــال ، ورؤســـاء الحكومات الاستعمارية الخلفية...!

ويتحـدث رشـدي صـالح في الأخبـار في عـدد 12 نـوفمبر 1975 عـن الروايات الهابطة، فيشير إلى أزمة المسرح العـالمي .. الأزمـة الـتي انتهـت فعـلاً إلى إشهار إفلاسه بالصمت .. أو بالعبرات الصامتة .. إنـه يحلـل أزمـة المسـرح بمنطقه الخاص، ولكنه يعلن لقرائه في مصر أن هذه الأزمة الشديدة واقـع حقيقـي وليسـت ظـاهرة عارضـة ، بينمـا يرفـع صـوته في مقدمـة مقالـه بـأن "الفـن الهـابط " أي الفـن المسـف وغـير الأخـلاقـي هـو علـة متفـق عليهـا لهـذه الأزمة في المسرح العالمي فهو يقول:

"الذين يقولون إن الروايات المسرحية "الهابطة" هـي الـتي تحقـق أرباحًـا وتصنع رواجًا قد خسروا جولة هامة علـى النطـاق العلمـي، ووضـعوا أنفسـهم موضع الفرجة"!.

ثـم يقـول "في لنـدن وهـي إحـدى عواصـم المسـرح الكـبرى لم تـزل "الزوبعة" تعصف حول فنون التمثيل والمسرح والموسيقى والباليه هنـاك، مـن أزمـة ماليـة جارحـة، ومـن أزمـة خطـيرة أخـرى تبـدو في انصـراف أعـداد غـير قليلة عن المسارح" !.. انتهى

ولكـن السؤال المهم في هذه الأزمة هو: من أين تـأتي الأربـاح الكـثيرة حتـى يـنجح العمـل؟ ... وحتـى يغـري القـائمين بـه؟ ... لقـد كـان الملـوك والإقطـاعيون يـدفعون مـن جيـوب عبيـدهم لإقامـة المسـرح البهـيج لهـم في قصورهم .. اليوم من يدفع؟ .. الشعب هو الذي يدفع .. ولكـن كيـف يجعلـه الأوصياء الجـدد .. ملوك الظـل.. المستغلون التجـار.. كيـف يجعلـون الشـعب يدفع كثيراً.. هل عن طريق فن رفيع ..! ؟ الفن الرفيع ليس هو "صـناعة تعلـم الاحترام للملوك" كمـا كـان شـأن الروايـات الكـلاسيكية كلهـا..؟ .. الفـن

الرفيع هو :صحوة الشعب عن الخمور والشرور التي تبيحها له الرأسمالية بكل يدها اليمين.. كما تبيحها الشيوعية بكل يدها الشمال.. فكيف يمكن أن يكون الفن رفيعًا بلغة الشعوب.. وليس هابطًا لمصلحة السياسة.. في أوروبا كلها.. هذا هو السؤال؟!

لقد حاول مخترع المسرح الملحمي أو الوثائقي الألماني بروتولد بريخت أن يتقدم من طريق الخطوة التي اتخذها في مسرحه ليتحول بالجمهور من مجرد تقبل الإثارة .. على المشاركة في القضية المطروحة واتخاذ المواقف، ومن تصور المشاهدين أن الوجود دلالته "التفكير" إلى وعيهم أن الوجود دلالته "المجتمع" ومن الاقتناع بمجرد الإيحاء والشعور.. إلى يقظة الجمهور – من هذا المنهج المباشر لتفهم "البرهان "العقلي والتأثر به .. ومع ذلك ، وعلى طريقه في تنشيط الجمهور للقضايا الاجتماعية، فإن أفكار بريخت لقيت المعارضة الشديدة في حكومة ألمانيا الشرقية، كما أن أدب بريخت "الاشتراكي" في جملته لم يكن مقبولاً في دوائر النقاد في روسيا السوفيتية وإن تسامحوا معهَ !

هذه أذن هي أزمة المسرح الأوروبي الوثني ، الذي له راع يستغله دائمًا Patronago هو السلطة.. راع لا يستطيع أن يقدم للجماهير فناً رفيعًا ، لأن الفن الرفيع هو فن الواقع والحقيقة، والحياة ،وقضايا الحياة، وهو فن لا يمكن أن يقوم على هذه الدعائم إلا بالمنهج المباشر. المنهج العلمي العربي الإسلامي الذي عاش به أدب الأحرار المؤمنين الصادقين.. ومعنى الأسلوب المباشر للمسرح الأوروبي بحسب طبيعته، وبحسب تقاليده، وبحسب مخدراته وتسليته وخداعياته أنه يسقط وينهار.. ومعنى أنه لا يعيش للجماهير في عصر الشعوب – كما افتضح أمره وعجزه او هبوطه أخيرًا – أنه يسقط الآن وينهار.. وهذا هو الدرس الذي تعلمه الناس هناك من بريخت

.. لقد تعلموا أن توجيه نقد صريح للحزب الشيوعي الذي يحكم الجميع بأهراء قلة من الجميع ليس إلا نوعًا من الاستشهاد الذاتي.. وكذلك بالتأكيد لا يمكن أن تتحمل الحكومات الرأسمالية أي نقد صريح يسمح بالدعاية للشيوعية مثلاً على مسارحها.. أو في أغرب ما يمكن تصوره أن تسمح بالدعوة إلى مبادئ "الإسلام" الحق في قلب لندن أو باريس أو نيويورك .. إن كل هذا مستحيل بالطبع في منطق من أصبح المسرح عليهم عبثًا بعد أن فقد طبقته.. وبعد أن حلت الصورة والصوت والحركة والمشهد الخيالي مثل السينما والتليفزيون .. وأفلام العرض الخاصة في بيوت الأغنياء والطبقة أيضا؟!!

وهكذا مع احتضار الحضارة الأوروبية كلها إنسانيا وأخلاقيا ، ومع تمزقها نفسيًا واجتماعيًا.. يفلس المسرح .. وتملأ وجهه الغضون وهو ينكس رأسه المثقل بالأكاذيب ، بينما يدب الشيب غير الكريم إلى شعوره المستعارة.. كلها!!

هذا.. بينما تستمع إلى الدكتورة ليلى عنان أيضًا وهي تحذر في مقال لها بمجلة روز اليوسف 15 مارس 1976 من استمرار عقدة الخواجة في دماغ بعض المثقفين ، وتقول : "متى نتحرر من هذه العقدة وتعرف أن الموسيقى العالمية ليست إلا الموسيقى الأوروبية ، وأن الأدب العالمي ليس إلا الأدب الأوروبي.." أليس معنى ذلك ضرورة استعادة آدابنا.. وهويتنا!؟

فيلم عن النبي:

كل هذه التحذيرات، وهي إشارة فقط لما تدل عليه من المخاطر على الشعب العربي في حالة صحوته بينما هو يملك عقيدته الكاملة اجتماعيًا وإنسانيًا مع وسائل التعبير السليم والصحي والتقدمي عنها – لابد وأن

تحمل المسئولين " المثقفين على مراجعة النفس، والعقل، لتفادى هذه المخاطر التي تعرض لها بالفعل عالم أوروبا الذي كان المثال الخاطئ للذين اختاروا محاكاته من الأدباء والفنانين .. على أن أكبر الخطر على شعبنا العربي في كل أقطاره ليس هو فقط هذا الذي أشارت إليه الكلمات السابقة بإيجاز.. وإنما هو في ظاهره غزو شرسة أخرى تطرق الأبواب بشدة من الغرب حاملة على وجهها الوحشي والصهيوني قناعًا زائفًا من أسماء عربية حتى يجوز على مواطني بلادنا. إنها غزوة أفلام دينية تزعم أنها إسلامية، وتتكلم العربية، وهدفها الأساسي والباطني في أعماق أهداف خداعية متعددة هو الزراية بأسلاف العرب وتحقيرهم كشعب تُلصق به كل العيوب.. عيوب أكثر كثير مما ألصقها الغزاة الأمريكان بالهنود الحمر.. ثم العبث بالتاريخ الإسلامي لصالح إسرائيل.. ثم فتح باب العدوان على الرسول وأصحابه بإظهارهم في أفلام متعددة الأهداف، حيث يقوم بتمثيل شخصياتهم من يعمل على التمثيل بشخصياتهم، واستخدامهم كأدوات تلهوا بها الصهيونية العالمية، ملكة السينما والدعاية الكاذبة، لحساب" إسرائيليات عصرية" تذبح بها المفتريات وتنتشر بها فتنة التفرق والتمذهب بين المسلمين الذين كادوا أن يذوبوا وتتقرض خيام معسكراتهم تحت وطأة أعاصير التفرق والتمذهب في دين واحد يدعو بكتاب واحد إلى إله واحد.

إن ما أحكى عنه هنا بإيجاز شديد هو فيلم "محمد رسول الله" الذي لا زالت بقية الرشد في هذه الأمة تعمل على منع عرضه بعد أعدت له الشركة العربية الأمريكية، صاحبته، كل وسائل النشر الواسع، والإعلان المدوي، إذا أتيح لها تكسر المعارضة الإسلامية الشاملة له وتعرضه..

في ظروف عابرة في أوائل 1971 كنت في موقع للمسئولية الشعبية أتاح اطلاعي على تفاصيل قصة هذا الفيلم، كما فرض أن أعطى رأيا أمينا فيه من وجهة النظر الإسلامية، وقد أتيح لي على أثر مقال كتبته في جريدة الأخبار في 29- 1- 1971 عن هذا الفيلم تحت عنوان "إسرائيليات عصرية" أستنكر فيه أن يكون الرسول موضع تجربة وممارسة جديدة للعدوانية على الإسلام بعد حملات المستشرقين الطويلة – أتيح لي أن ألتقى بأحد الواجهات العربية للشركة التي تخرج الفيلم في أمريكا وهو محمد ناصر السنعوسي الذي زارني في مكان عملي ليرد على المقال. قال و هو يعرفني بنفسه: أنه كويتي تعلم في أمريكا، وحصل على دراسة جامعية في الأعلام، ودرجة علمية في فنون السينما الخ.. وزعم لي أيضًا أنه نجدى من قبيلة شمر.. ثم قال إنه التقى في لوس أنجلوس بصاحب شركة صغيرة للسينما وهو مصطفى العقاد: سوري من حلب.. ثم زعم أنه في مواجهة ما كان يحسه بالضياع – مع شباب العالم في أمريكا – فكر مع صديقه السوري في إخراج فيلم ينوب عنهما في "تعريف العالم بحقيقة الإسلام.." " ثم قال: "إن الفيلم يهدف أيضًا إلى "إثارة المسلمين إلى وحدتهم .. وإنه من اجل هذا أنشأوا شركة سينمائية جديدة لها مركز في بيروت، بعد أن أسهمت فيها رؤوس أموال عربية من أكثر من دولة" .. ثم عن إظهار شخصية تمثل الرسول وأصحابه قال: لقد وافقنا على أن نكتفي بمؤثرات استحضار الشخصية للرسول وأصحابه مع اختفائها..!

بعد حديث طويل مع السنعوسي الذي اعتقدت أنه مع حذلقته الأمريكية كان كما رأيته – لا يزال ضائعًا ، وأنه يسهم بحماسته في لعبة سياسية خطرة لا يدري حدودها بالقدر الذي يدركه صديقه السوري مصطفى العقاد وكتبت تقريرًا بتاريخ 2- 2- 1971 إلى كبار

المسئولين حول هذا الفيلم أضمنه رأيي من خلاصة تحليل المعلومات التي حدثني عنها السنعوسي، في ضوء هذا السؤال الطبيعي: "ما الذي تريده إسرائيل وحلفاءها في أمريكا من أهداف عاجلة وأخرى مع الزمن بهذا الفيلم ؟!"

وفي هذا التقرير لخصت الإجابة عن هذا السؤال وذلك بعرض أهداف إسرائيل وحلفائها من هذا الفيلم وهي كما يأتي:

1- الدعوة إلى الوحدة الإسلامية بمفهوم الحلف الإسلامي الخاضع لحلف الأطلسي بديلاً لما يراد ضربه من مفهوم "القومية العربية" التي لا يمكن أساساً أن تقوم إلا حول محتوى عقائدي إسلامي.. ضمنًا هز الثقة في الاتفاق الرباعي بين مصر وسوريا وليبيا والسودان ، وضرب العلاقات النامية بين المشرق العربي والمغرب العربي باتجاه الوحدة.

2- تمييع المواقف العربية لصالح إسرائيل، واستغلال قصة المعاهدة بين النبي ويهود المدينة لتنشيط الآراء المأجورة التي تنادى بالصلح قبل انسحاب إسرائيل عن الأراضي العربية ، وبذلك يجري تفسير التاريخ الإسلامي في بدايته على هوى السياسة الإسرائيلية ، مع طمس مواقف الخيانة والغدر التي استمت بها مواقف يهود المدينة الذين "نقضوا المعاهدة" وأثبتوا أن الحل السليم والطريق الوحيد للصلح هو جلائهم التام عن المدينة!

3- إظهار العرب كأنهم كانوا قبيل الإسلام في صورة الشعب البدائي المتهوس الشره، الذي يعيش على السرقة والجنس والخمر ، وظلم العبيد ، بينما هم في مكة قوم محمد ، وأترابه ، وأهل المكارم والمآثر والعفاف- إلا قلة لا يؤبه بها –وأنهم كما اجتباهم الله للدين . تعقلوا بمستوى البيان والنظر العقلي والعلمي والأخلاقي ما

جاء القرآن ليذكرهم به فآمنوا جميعًا بعد سنوات قليلة وبعد عدد قليل من القتلى والشهداء أقل في عددهم من حوادث القتل والسيارات التي تجرى الآن في يوم واحد في مدينة واحدة مثل نيويورك.. !

4- فتح الباب لهجمة رعاة البقر على التاريخ العربي الإسلامي من طريق "الفيلم" العدواني الدعائي لإثارة الخلافات، والحروب الصغيرة والكبيرة بين العرب.. وهذه مهمة تسعد إسرائيل إذا أعطيناها الفرصة بهذا الفيلم لتتولاها بنفسها.. وليس من طريق السنعوسي ومصطفى العقاد.. ولا من طريق الكتاب المصريين الذين تفضلوا فشاركوا في المهام الفنية لهذا الفيلم، وعلى رأسهم العبقري "الكلامنجي" توفيق الحكيم الذي وضع الحوار .. والكلامنجي هذه ليست من عندي، وإنما هي في إحدى شطحات الحكيم الصفة التى تميز الإنسان كما تصدى لتعريفه بأحدى مقالات الأهرام وقد أختار أن يصوغ له هذه الصفة ... باللهجة التركية.. التي يحبها جداً.. ولأنه أيضًا في بعض حالات غياب الوعي نسى الكلمة العربية التي تدل على الكلام.. هذا هو أحد الأقنعة العربية التي يزف بها فيلم عدواني هو مقدمة لغيره ..فيلم يسمونه بالجرأة وبغير حياء فيلم "محمد رسول الله" بينما هم يصعدون به بإصرار حرب "الكلمة والصورة " ضد التماسك العربي.. وأمل وحدة العرب .. وأمل أكبر في نهضتهم، ووحدتهم أولاً – قبل وحدة العالم الإسلامي المتباين اللغات والحدود على أساس الإسلام..!

الفصل الرابع

والآن ما هو البديل عربيًا وإسلاميًا
من موجة الانحلال العقلي بالرواية والمسرح

بين القديم والجديد:

واليوم إذا أردنا أن نتدرج من الخروج من حمأة الفكر الخيالي، والخرافي الأسطوري، لنحقق الأصالة العصرية في وعينا للواقع، ونحن نفكر ونعبر مع هذا الواقع تفكيرًا حقيقيًا، ونعبر تعبيرًا أدبيًا علميًا.. سنجد من البداية في ضوء ما سبقت الإشارة إليه في فصول هذا الكتاب – أن الأمة العربية تعيش في مفهوم القديم والجديد بين نارين من نيران الخيال الكاذب، والخرافة الباطلة.. فلقد أحاطت الخرافات بالتراث الإسلامي المدون حتى كادت أن تستوعبه، وأن تعزل الصحيح منه لتعلو بالزائف، وتقدمه على أنه الصحيح.. كما أن الجديد في التفكير والتعبير هو هذا البلاء القصصي المسرحي اليوناني بجذوره الضاربة في الوثنية اعتقادًا وتصورًا، وتفكيرًا وتعبيرًا.. مما انتهى أمام أعيننا إلى ضياع أصحابه في أوروبا.. واحتراق أعصابهم به.. وهم في ذروة قوتهم المجنونة بالأدوات والأسلحة..!

إننا ونحن نكافح الخرافة العصرية بجذورها القديمة لا ننسى أن نكافح في تراثنا ما استحكم في أكثر مدوناته من الخرافة القديمة التي تسود أكثر الجانب الديني في حياتنا العصرية.. هذه الخرافات التي نبه إليها القرآن في قصصه عن الأمم السابقة، وبخاصة عن اليهود.. وهي الخرافات التي انتبه إليها بعد أن استرجعها اليهود والشعوبية في أثواب إسلامية مزيفة إلى المجتمع العربي الجديد – عدد كبير من أعلام المسلمين الأولين.. بينما لا يزال عد من المؤلفين المعاصرين يحمل هذا التحذير بتنقية التراث منها ويزيد من بيان الخطر من كل هذه الخرافات التي لم تكن لتجد لها صيغة تتستر فيها، وتتمطى بداخلها أسطوريًا غير القصص المخترعة..!

في "الإتقان" أن الإمام أحمد بن حنبل قال عن مجالات الاختراع والدس على المسلمين "ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي"!

ويقول أحمد أمين في كتابه "فجر الإسلام" وهو يقدم لمحة على مشهد من مشاهد الوضع في التفسير اعتمادًا على الرواية التي دخلها الكذب الإسرائيلي ويعلل ذلك: "إن كثيرًا من الشعوب المختلفة ذوات التاريخ دخلت في الإسلام، وهؤلاء أخذوا يدخلون تاريخ أممهم ويبثونه بين المسلمين العرب، إما عصبية من لقومهم أو نحو ذلك، فكثير من اليهود أسلموا وهم يعلمون كثيرًا من تاريخ اليهودية وأخبار الحوادث حسبما وردت في التوراة وشروحها، فأخذوا يحدثون المسلمين بها، وهؤلاء ربطوها بتفسير القرآن أحيانًا، وبتاريخ الأمم الأخرى، وإن شئت فاقرأ ما في الجزء الأول من تاريخ الطبري تجد منه الشيء الكثير مثل "وحدثني المثنى بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثني أبو معشر عن سعي بن سعيد عن عب الله بن سلام أنه قال: إن الله بدأ بالخلق يوم الأحد، فخلق الأرض في الأحد والاثنين وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، خلق السماوات في الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة"!!!

ثم يقول أحمد أمين: "وكثير من هذا النوع روى حول ما ورد في القرآن من قصص الأنبياء، كذلك كان للفرس تاريخ، وكان لهم أساطير، فلما أسلموا رووا تاريخهم وأساطيرهم، وكذلك فعل النصارى.."!

وفي الإشارة إلى مرحلة الوضع والتخييل واختراع القصص وتقويض أركان التاريخ الصحيح والقصص الحق – يقول المستشار عبد الحليم الجندي في كتابه عن "أحمد بن حنبل": "وكان بعض الوعاظ في ذلك العصر يطلقون الأعنة للأخيلة، فهم يتخيلون ثم يخالون، أو يشبهون

ويجسمون، أو يلهون الأذهان بالتزويق والتلفيق، أو تأويل الحديث والقرآن، أو يعظون بأحاديث موضوعة"!

ثم يقول: "يقول الفضل بن مهران –في عصر ابن حنبل– قلت ليحيى بن معين: لي أخ يقعد إلى القصاص. قال: انهه.. قال: إنه لا يقبل.. قال: عظه.. قال.. لا يقبل.. أفأهجره؟.. قال: نعم –فأتيت الإمام أحمد بن حنبل فذكرت له نحو ذلك فقال: قل له يقرأ المصحف ويذكر الله تعالى في نفسه، ويطلب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن هذا الاجتماع محدث "أي إن مجلس القصاص الملفق بدعة" قلت: فإن لم يقبل أوأهجره؟ فتبسم وسكت"..

أوليس هذا الذي كان ينهى عنه أحمد بن حنبل وأصحابه، ويكادون يهجرون من يأخذ به وهو مجرد الاستماع إلى التلفيق والتخييل وليس جريمة الوضع والاختلاق نفسها.. أليس هذا قد أصبح المناخ الذي يسود برواية الغرائب والأكاذيب مما لا أصل له في الكتاب والسنة – أكثر مجالس ومنتديات وكتابات وكتب المتصوفة والدعاة باسم القرآن والإسلام.. في عصرنا هذا.. عصر الرواية الخيالية، والمسرح التلفيقي، والأفلام التي تتاجر في العنف والجنس، وتقتل الواقع بالخيال، وتدمر المستقبل في متعة لحظة قصيرة: مملوءة بالأكاذيب..

والأغنية أيضًا:

ونار ثالثة يشعلها الغواة أيضًا بين النارين.. نار الخرافة القديمة والخرافة العصرية وهي النيران الأكثر تغلغلًا بغير جهد يذكر إلى أوسع الجماهير، وفي أعماق الحساسيات الموجهة للإنسان.. ونغني بها الأغنية.. الأغنية التي لها ألف وسيلة لتطير إلى الأفواه، وتنفجر في المشاعر، وتذهب

بالعقول، وهي تلخص كل مرض الأثارة بالخيال، والتنفيس الجنسي المرضي، في نغمة غاوية عارية، ترقص بوسطها، وتغمز بعينها، وهي تدفع المتأثرين بها إلى هاوية الضياع والابتذال والهستيريا بين حدي الشبقية والعهارة كما يقول الدكتور حسين فوزي.

حول هذه "الأغنية" التي أفلت عيارها منذ جعلها الانجليز، كما جعلها مزاج الإقطاع، محذرًا وشاغلًا للشعب عن قضاياه الوطنية والقومية والاجتماعية يقول الصديق فرج عبد الرازق العنتري سكرتير عام نقابة المهن الموسيقية والعضو الفني الموسيقي بهيئة السينما والمسرح والموسيقى بوزارة الثقافة:

"ظلت الأغنية المعاصرة في المدينة تتجه باستخدام مؤثرات عجيبة وشاذة من البكاء والتباكي الملحن - إلى محو الشخصية، وتعطيل الفعالية الواعية أمام مواقف الحياة.. وعندما لم تحصل على البديل الصحيح لها مستمدا من أعماق التراث الشعبي السلوكي، والنغمي، في القرية المصرية فإن الشباب المثقف قد بدأ بعد مراحل من الوعي السياسي ينصرف عنها بإباء، ولكن ليجنح مضطرا إلى مسارات لها نفس الخطورة والوعورة.."

ثم يقول:

"فأولا.. هذا المسار المتفرنج الذي يعكس طابع ضياع الشباب الأوروبي، والذي يأخذ شكل إيقاع "الجاز" والصراخ بالألفاظ الأجنبية، وطبيعي أن شحن وجدان المتذوق لهذا الفن الهمجي الحديث لا يتم إلا في جو ضوء أحمر، وكأس، وانقلاب من كل الضوابط بغير يقظة أو وعي.. فهذا هو أحد البدائل في غيبة "أغنيتنا" المعبرة عن يقظتنا كما كانت تعبر عنها الأغنية المصرية وهي تصحب كل ثوراتنا في العصر الحديث.."

"ثانيا.. ظهرت في مسار آخر هذه "الأغنية السياسية" الهستيرية أيضًا، والتي أصبح يتداولها عدد غير قليل من الشباب المثقفين، والتي تنسب إلى "الشيخ إمام" وهي في شكلها ومضمونها بيان عن فكر سياسي رافض، أخذ مسحة من الترنيم ليس فيها من الفكر بقدر ما فيها من النكتة اللاذعة أحيانا، على أن هذه الأغنية السياسية بين الشباب المثقفين هي أيضا مؤشر على غياب الأغنية التي تصدق مع الحياة، وهي تعكس طموحهم الإنساني ونبضهم السليم.

"وثالثا ظهر تحت هذين المسارين مسار "سلبي" ليهتز به رجل الشارع، وطفل الحارة، في نوع من اختلاج رقص الزار بعد إشعال مفاجئ لحميا الجنس من خلال هذه الأغنيات الممسوسة ذات الإيقاع الغامز بعين النبَّر، والتي عرفت باسم "العدويات" والسح والدح والتي تستهدف أساسا ترقيص النصف الغريزي الأسفل على صوت شخير القوى الواعية في النصف الأعلى"!

ثم يقول في الإشارة إلى البديل المهجور: "على أن القرية العربية في مصر وفي كل الأقطار العربية لا تزال تلتزم بالشكل الفني العربي الأصيل ميزان الشعر في البحر البسيط: وذلك في الموال الذي سجَّل به الفلاح المصري في القرية، وابن العرب في المدينة، كل مواقف النضال الوطني والقومي، وكل ما أمكن التعبير عنه رغم التخلف المعتمد بوطأة الاستعمار عن الحكمة العربية ونظرية العلاقات الإنسانية في ضوء الدين.. هذا الموال في مصر أو الميجانا والعتابا ونظائرهما في الشام والعراق. أو الدوبيت في السودان، أو أجزاء النوبة الموسيقية في المغرب - هو مصدر الانتباه لمنابع الأصالة الغنية - بعيدا عن التخريف والإثارة. وعن هذا الاختيار المر بين أغاني الذل والأنين أو أغاني المصروعين والممسوسين.. هذه

المنابع التي يمكن أن تساعدنا الآن على أن نخطو الخطوة الأولى الموجهة نحو الأغنية السمحة المعبرة عن جمال آفاق ومشاهد أوطاننا الغنية بدواعي الإنسانية والسلام كما تفعل "فيروز" وحيدة بالنسبة للبنان.. الأغنية المعبرة أيضا عن جمال ونقاء نفس الإنسان العربي المؤمن عندما يحب حبه العفيف لا الفاجر.. نوع الأغنية العفيفة القوية ببساطتها وعمقها الشعبي وإطارها النوراني من طبيعتنا كما تقدمها فيروز وحيدة أيضا.. وأنها أخيرا أو أولا الأغنية التي تسجل نضالنا القومي، وتزيد تعميم حوافزنا له، وتجسيده بالنغم والمعنى الخالد لآمالنا وتقدمنا من ورائه.. كما قدمت فيروز للمرة الثالثة عن فلسطين.. وكما قدمت أم كلثوم أيضا من بعض حسناتها "أغنية" الموقف النضالي، وبعض القصائد الدينية.. وإن يكن بالقدر الذي لم يتجاوز - داخل الأعاصير الهوجاء التي عصفت. ولا تزال تعصف بالأغنية العربية - حدود ما نسميه أضعف الإيمان ..!"

ثم يقول "لو أن صانعي أغنية المدينة كانوا ممن أثمر فيهم عيش بلدهم وملحها لرجعوا فورا إلى منابع هذه الثروة النغمية والسلوكية في القرية المصرية. ولتمسكوا بالمبدأ القومي في الفنون والآداب، وهو الذي يرى أن الشعب هو الذي يصنع موسيقاه، ويحدد حدود آدابه، وما على الأدباء الفنانين إلا تنسيقها، والتعبير عنها.. ذلك أن "النغمة" السليمة، والخالية من هزات المرض العصبي، أو الإيحاء الاستعماري.. مهمة أيضا مع غيرها من الدعائم في "الفكرة" و"الكلمة" و"المادة" في صياغة القانون.. من أجل إيقاظ الفطرة وجدان السليم، وضبط الإيقاع اللازم في حركة المجتمع لتحقيق سلامه النفسي والعقلي والاجتماعي"

العزلة عن القرآن:

لقد رأينا أن كل القوى المعادية من أول ظهر الاختلاف في القصص الخيالي في التراث إلى بداية الحملة القصصية المنظمة مع الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر لإنشاء دعائم المسرح الأوروبي الدعائي لأوروبا، والمنوم عن واقع العرب - قد رأينا كيف أن كل هذه القوى كانت تجعل هدفها المركزي الخفي هو الابتعاد بالعرب عن منهج القرآن في قصصه الصادق، وخطابه المباشر، وغاياته من الحفاظ على سلامة التعبير عن حياة الإيمان، وعن مقومات مجتمعه في اللغة المبينة، والتاريخ الحي، والدين الحق..

من أجل ذلك لم يكن غريبا أن تفرخ الآراء الاستشراقية التي نشطت في المناخ الاستعماري، ومسخ سياسة التعليم على يد دهاة الإنجليز، فيظهر من بين العلماء المتعالمين من يعلن في محاضراته وكتبه عن نفس الأفكار الأوروبية العدوانية تجاه القرآن الذي هو شمس الإسلام الدائمة، ومن يعمل وراء التظاهر بانتهاج الديكارتية في التفكير مثل طه حسين، أو بادعاء الأمانة العقلية ستارا للهوس بالعدوان على العقل، والخروج في أكثر أثواب التهريج الفكري ابتذالا للقول، باسم العمى والضلالة، وليس باسم العلم والبحث، مثل ما قاله أمين الخولي ومحمد أحمد خلف الله، وأشباه لهما غصوا باضطراباتهم العقلية فنثروها على وجوه تلامذتهم..!

والهدف كان - والجيش الإنجليزي لا يزال مقيما في ثكنات قصر النيل - هو تنزيل "التنزيل" عن درجة "الوحي الإلهي" إلى مستوى "العمل الفني" في القصص.. ومع ذلك فلم ينزل "التنزيل" عن درجته العليا في نفوس المؤمنين، الذين يقاسون بوعيهم وعملهم، وليس بكثرتهم وغثائهم..

كذلك فإن قامات الأقزام لم ترتفع قيراطا بهذا الهوس والإسفاف بالأمانة والعقل.. بل ساخت بهم الأقدام!

على سبيل المثال من الأقوال التي دمغت وجوه قائليها بقترة الكذب، والتلفيق الشعوبي، والمس الإغريقي، قول أمين الخولي استمرارا في المنهج التشكيكي لمدرسة طه حسين، وهو يصف الصدق البياني في قصص القرآن بأنه عرض فني أدبي وليس عرضا تاريخيا تحقيقيا: "إن عرض القرآن لأحداث الماضين، ووقائع حياتهم، والحديث عن تلك الأحداث والأشخاص، ليس إلا العرض الفني الأدبي لا العرض التاريخي التحقيقي" ثم يرتب على هذا التصوير الاختلاقي منه لقصص القرآن بأنه مجرد عرض فني أدبي - أن يطلق وسواسه الحبيس فيقول بغير أمانة: "وعلى هذا الأساس يستطيع المثقف الراقي حين يتدين أن يعتقد في تسليم مطمئن بحديث القرآن الفني في قصصه، ومع ذلك يحقق ويحلل في عمق ووضوح هاتيك الأحداث، وأشخاص أصحابها، وينفي في ذلك ويثبت مطمئنا إلى أن هذا لن يصادم بحال ما ذلك العرض الفني الآخر، وأن هذا العرض الفني مهما يقل التاريخ في أحداثه لن يمس سلامة القرآن وصدقه"!

يريد المتعالم في لحظات ضعفه أن يقول: إن حقائق التاريخ شيء والأحداث التي تحدث عنها القرآن شيء آخر.. الأولى علم.. والثانية فن.. ومهما اختلف العلم التاريخي الصحيح بتحقيق أمثال الشيخ أمين الخولي والشيخ خلف الله عن الوقائع التي أوردها القرآن في مجرد عرضه الفني الأدبي.. فاطمئنوا.. في حالة ما إذا كنتم متدينين فقط.. إلى أن هذا التناقض القائم بين إيمانكم وبين ما يدعيه هذا العلم الجديد.. ليس قائما.. فالتاريخ الذي عليكم أن تبحثوا فيه بعيدا عن وقائع القرآن صحيح.. والقرآن البعيد أيضا عن هذه الوقائع الصحيحة.. هو من أجب خاطركم إن

كنتم متدينين.. صحيح أيضا"!!.. أية هاوية من الكذب الرخيص تردَّى إليها الشيخان!

ويمثل هذا الهوس غير الواعي في العدوان على عقيدة أمة العلم والعقل، وفي لحظات غفوتها، وهي في قيود أسر الأمية لأكثر أبنائها - يرفع محمد أحمد خلف الله صوته بالتعالم الهاذر في كتاب "الفن القصصي في القرآن" ليشير الزعم بأن القرآن كتاب "فني" أيضا ربما مثل الإلياذة والأوديسة في نظره - وفيه أساطير! فهو يقول في لغة غير علمية: "إن القرآن نفسه لم يحرص على أن ينفي عن نفسه وجود الأساطير فيه وإنما حرص على أن ينكر أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله".

ولقد أوفى الأخ عبد الكريم الخطيب في كتابه "القصص القرآني" حق الرد على هذه الادعاءات الصورية المسرحية في كلام الخولي وتلميذه وروايته، وهو يصور مصدر الجنوح الفكري في رؤية محمد أحمد خلف الله لقصص القرآن بحيث انعكست عليها أساطيره هو لا ما زعمه من وجود أساطير في القرآن، وذلك حيث يقول الخطيب: "ومع اعتراف الدكتور خلف الله، وإيمانه بأن القرآن من عند الله، وأنه كلام الله، فقد نحىَّ هذه الحقيقة جانبا، وساق القرآن سوقا إلى ساحة "الفن" وحكم فيه مقاييس الفن، وأخذه بمعاييره، كأي كلام أدبي يصدر من كاتب أو خطيب أو شاعر، وذلك فيما قص من قصص وصور، ومن أخبار وأحداث. وها التناول قد سمح للدكتور خلف الله بأن يقول في القصص القرآني أقوالا تنزع عن صفة الصدق الذي له، والذي لا ينفصم عند أبدا، لكي تلحقه أقواله بالقصص الأسطوري، أو التمثيلي والتخييلي.."!!

وهكذا كانت الخطى الحثيثة التي تركض وتدبدب في الظلام، وفي العتمات، تستهدف عزل الشعب العربي المؤمن عن القرآن تفكرا وتعبيرا وبهجا. وهي تتلاقى كلها بغير خجل في جهود من يخطونها بالعمد أو بالجهل وسواء أكانت هي خطوة في ظلام شارع المدينة بالأغنية التي تقول بتشجيع الاستعمار "ارخي الستارة اللي في ريحنا" أو كانت هي الأغنية التي تحاول غزو القرية المعتمة بالتخلف بجوار تلك الحانة التي أنشأها تاجر القطن اليوناني داخل دكان للبقالة والتسليف بالربا وبيع الخمر، في الخطة الاستعمارية الواسعة والتي تقول - أي الأغنية على لسان القروية العفيفة لغزو خيالها، وإصابتها بالمس بينما العمدة يسكر عند الخواجا ويبيع أرضه: "كان إيه جرى في المندرة؟.. ما اعرفش.. كنت صغيرة!!".. أو كانت الخطوة الخطرة هي "النظرية" الخيالية في منطق الخواجا اليوناني نفسه في خمارة القرية.. التي يقول أصحابها للعبث بعقول شباب الجامعة في بواكير أعمارهم "أبشروا.. القرآن أساطير أيضا"!!.. نعم كانت هذه الخطى التي صنع الاستعمار كلماتها وإيقاعها وهدفها تسير في كل وقعها المتباين في المستوى ونوع المجال والناس منسجمة تماما نحو هدفها الشرس لتأكيد عزلة هؤلاء الناس الذين ينهش الاستعمار معتقداتهم ولغتهم وآدابهم، كما افترس موادهم وأخمد نشاطهم وحيويتهم، وأذهانهم إلى فترة ما غير قصيرة عن أنفسهم..

العربي المعاصر:

لقد كان هذا يجري بعنف في الثلاثينات والأربعينات لتطويق الصحوة الوطنية والقومية وقيادتها إلى الطريق الخاطئ. لقد حدث ذلك في ظل الشقاق الحزبي.. في ظل الأحزاب التي تبارت في رفع مفهوم أوروبي غريب على ساحة التحرير، وسارعت إلى صنع الأثواب السياسية بالمفاهيم

الأوروبية المتنوعة لتقوم بأدوارها المستمرة من عهد إسماعيل لمحاكاة أوروبا فيما لا ينفع..لقد كانت هذه الأفكار الغربية التي تعمل على تقويض التراث وهدم الأصالة ترفع أصواتها مع الشعور بالزهو، والرضى العام من الباشوات، بينما كانت هذه الأصوات تختلف على مصلحة وطن واحد وسط الهتافات التي تزعق "يحيا سعد" و"يحيا عدلي" و"يحيا صدقي"..!

كانت هذه الأصوات في التجهم على حقائق القرآن، والتي أدانها قرار النائب العام محمد نور في محاكمته لطه حسين كما نشرتها مجلة الهلال في عدد أول يوليو 1970 عن أقوال مشابهة - كانت هذه الأصوات تتغنى وتتبجح في ظل الفرقة السياسية الحزبية إلى أن تحرك الشعب بثورته سنة 1052 ليظهر بإرادته داخل تجمع وتحالف أبناء القرى والمدن.. تجمع كل الشعب من الفلاحين والعمال والمثقفين، في تحالف جاد باتجاه المصالح الوطنية والقومية **فهو** لا يسمح بمثل هذا الالتواء بالثقافة عن منابع الشعب، وعن تراث الأمة، كما لا يدع مجالا للزعم غير العلمي بأن قصص القرآن قصص فني أدبي وليس **قصصًا** تاريخيا تحقيقا.. هذا الزعم الذي لم يستطيعوا تأكيده على أي حقبة من **حقب** التاريخ التي تناولها القرآن في قصصه بالحق العلمي، والصدق البياني والذي جاء توفيق الحكيم في أولى تجاربه القصصية التاريخية وهي "أهل الكهف" فأثبت عجز هذه المدرسة الأوروبية عن شيء غير الخرافة، وغير الأسطورة التي قادت الحكيم إلى قسر التاريخ الحقيقي باسم دواعي الفن لكي يسبغ الأفكار الرومية بهواه على هذه القصة البكماء، بل أن يقلب وقائع هذا التاريخ رأسا على عقب وهو يفترض بجبروت هواه أن تحدث حادثة "أهل الكهف" في بلدة طرسوس البيزنطية، وبيت فتية آمنوا من أهل الروم..! بل ومن أبناء الطبقة الظرفاء في بلاط ملكه المزعوم دقيوس.. وحيث يزعم مسبقا في حوار ظرفائه الروم

والذين آمنوا أن آمنوا أن مثل هذه الحادثة وقعت قبل ذلك فيما ترويه بعض الأساطير اليابانية.. أي إنه ليس في نوم أهل الكهف في قصص القرآن أي آية ترتبط بالإيمان ولا خلافه.. وكيف وقد جعل ظرفاءه من أبناء الطبقة الذين آمنوا يظهرون أمام مشاهديهم من الأروام أيضا بعد صحوتهم الموقوتة بمظهر المجانين الذين كان همهم الوحيد البحث عن الدنيا التي تركوها بالإيمان.. عن المعشوقة والأسرة والبيت والولد.. بينما يجدفون بالإيمان.. ويسخرون منه بلغة توفيق الحكيم!!

لقد قامت الثورة والصحوة العربية والاجتماعية والإنسانية في مصر بعد ذلك، ورغم ذلك، حيث أصبح التقدم الطبيعي مع التاريخ الحقيقي، ومع سنن العلم، وليس مع الشطحات والخرافات التي لا يمكن قبولها تحت أي شعار.. كما أصبحت الشريعة الإسلامية على الأبواب، مع حصيلة يقظة نحو ربع قرن.. الشريعة التي تبنى بالإيمان فوق أنقاض هذا الهذيان الطويل مجتمع الوعي والصدق، والطهارة الأخلاقية والعمل الجاد..

ومع ذلك.. مع اقتراب القرية إلى المدينة.. ومع التحول إلى اعتبار الجد والصدق والوعي الاجتماعي باتجاه السواسية صفات أساسية للتقدم، تظهر في رجحان النظر العلمي شيئا فشيئا، وفي الحاجة إلى ما هو أكثر في التعبير والسلوك من الوضوح بالفكر تجاه الإيمان.. مع كل ذلك فإننا عندما وصلنا بداية الأمان على الطريق، وأول العبور إلى الصحيح، تبين لهذا الإنسان العربي أنه لا يزال يسابق جهد المستعمر حتى لا يجرده من معالم ومناخ الرؤية لطبيعة هذه "الأصالة" التي أصبح يلح عليها منذ ورقة أكتوبر للرئيس محمد أنور السادات، حتى يعيد إحياءها في حياته، وإحياء حياته بها، في ثوب ومفهوم وطابع العصر..

بكل بساطة.. ومن النظرة الأولى إلى العربي المعاصر نجد أن جميع المراحل السابقة في عهد الاستعمار قد أسلمت هذا الإنسان العربي إلى عصر الثورة في إطار هذه النقائض التي لا تزال تعبر عن تبعيته الفكرية والقانونية والفنية لغزاته الأجانب في الظواهر الآتية:

أولا: مجتمع يحكمه القانون الأوروبي الذي يدمر قيمه، ويطمس ذاته، ويوقع هذا الانفصال في حياة هذا المجتمع بين الحقيقة القانونية وبين الواقع الاجتماعي..

ثانيًا: بيت يسكنه أكثر المواطنين في القرى من الطين يحمل كل دلالات التخلف الطويل الذي تتجمد به إرادة الإنسان المصري المنتج للغذاء داخل أغلال الجهل بالقراءة والكتابة، والعجز عن الرؤية العلمية للواقع الجديد باتساع الوطن والعالم.. أو مسكن في المدينة - كيفما كان مستواه - في عمارة بالطراز الأوروبي، الجاثم وسط مناخنا المشرق بطابع بلاد الجليد.. طراز لا هو عربي إسلامي.. ولا هو حديث في وعيه وتلبيته لحاجة الإنسان في مناخ عربي ومدينة إسلامية..!

ثالثًا: إنسان يفقد حتى الآن على جسده، وعلى رأسه، في المدينة زيه القومي الذي تحققه الآن رغم ثقافتها الأوروبية باكستان الإسلامية والهند الهندوسية.. فلم يكن ذلك مدعاة لشعور مواطنيها بالنقص، أو لنزولهم عن مستوى ملاحقة العصر في نظر السادة الأوروبيين..! .. بينما يواجه الذين يتمتعون بهذا الزي القومي من غالبية سكان القرى هذا الشعور الذي يثيره المتفرنجون في المدينة ضد هذا الزي، المنحدر إلينا من عصر الرسول، وما قبله، وما بعده- بتهمة لا علاقة لها به وهي التخلف بالجهل والفقر والمرض!!

رابعًا: لغة هذا الإنسان العربي المعاصر التي دخلها من طريق مسرح الروايات الرخيصة، وكلمات الأدباء العوام - أعداد كبيرة من التراكيب والكلمات الأوروبية، فضلا عن الإلحاح على اللغة الفصحى بالحرب، ومع الإصرار على إهمال تعليمها، أو العناية بمدرسيها، في مدارس التعليم العام، بل ومنذ الطفولة، إلى أن أصبحت العامية أو تكاد هي اللهجة الشائعة بين المتعلمين!

خامسًا: علاقات المجتمع نتيجة ذلك تغيرت طبيعتها داخل هذا المناخ الغريب لقد تغيرت إنسانيا وبعيدا عن طبيعتها العربية الإسلامية التي لا تزال تحس أثرها حتى في كتابات الرحالة الأجانب إلى أوطاننا خلال المائة سنة الأخيرة.. بل ولازلنا نجد بقاياها فيما اصطلح الاستعمار على تسميته بالأحياء الوطنية في عواصم البلاد العربية من القاهرة حتى بغداد ودمشق شرقا.. وحتى قرطاجة والجزائر والرباط والدار البيضاء - في أقصى الغرب.

هذا بينما في قلب هذه العلاقات الواهنة والاغترابية بين أهل السلام والألفة والإيثار في طبيعتهم، وطبيعة علاقاتهم - ترتفع أصوات مقرئي القرآن.. أصوات باعة البركة.. لا أصوات الدعاة.. لتشغل مآتم العزاء.. ولتصل عبر الإذاعة إلى القرية من أجل البركة أيضا.. وليس في مقام الدعوة والتثقيف والسلوك..

نعم.. إنه القرآن يقف صامدا وشامخا رغم ذلك في مواجهة قذائف الأعماق الهدامة في إنتاج الرواية الخيالية، والمسرحية الهابطة، والفيلم العدواني.. ليس الفيلم المصري فقط، وإنما الفيلم الصهيوني القادم من الساحل الغربي لأمريكا.. حاملا أساطير وأقانيم معابد وديانة العصر.. الخمر والجنس والجريمة!!

الشريعة والعلم:

وتأتي حركة التصحيح لتحدد سلامة الاتجاه بحركة المجتمع بعد الثورة وبعد التخلص من الاستعمار العسكري، وبداية البناء للاستقلال الاقتصادي، فتعمد إلى تقويم هذه الحركة وتخليصها من بعض الخطايا والأخطاء، وذلك بمنطق قومي، ومنهج علمي، يرتفع به في سنة 1971 شعار دولة العلم والإيمان، ثم يصدر الدستور بعد تعديله يحمل تأكيدا لهذا الشعار في مادته التي تنص لأول مرة في دستور مصري حديث على أن "مبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع".. وفي سنة 1973 تصدر وثيقة أكتوبر التي تشرح تركيب المنهج التقدمي السليم على أساس التكامل بين جذور الأصالة وواقع العصرية.. وهكذا في سنة 1976 بدأت اللجان المتخصصة تعمل للفراغ من تقنين الشريعة الإسلامية، ليعود الحق إلى أهله، وينتهي التناقض إلى الأبد إن شاء الله بيد الحقيقة القانونية في حياتنا وإيماننا وتراثنا وبير الواقع الاجتماعي.

وخلال هذا وذاك كانت أخلاق القرية، والدعوة لها في الكلمات الصريحة، وبالأسلوب الخطابي المباشر من رئيس الدولة إلى الشعب تتردد بالكلمة والأسوة، وبالقوانين الجديدة من أجل الحد والصدق والتسامح، ومن قرية ميت الكوم وصلت إلى المدينة صور رئيس الدولة الذي يفخر بقريته، وبأنه فلاح مناضل عن شعبه، ومع شعبه - لابسا ذلك الثوب الأصيل في تاريخ أمتنا، الثوب الذي لا يزال يلبسه أكبر تعداد من أبناء أمتنا العربية، من فئات واضحة تجمع بين فلاحين ومثقفين وعلماء وملوك.. إنه ثوب الفلاح الذي وصل إلينا من عصر الرسول وما قبله.. وتعبيرا عن مناخنا لا ضده.. ومع الثوب العباءة العربية.. ومع هذا كله إشارة نحو

المستقبل.. مستقبل صحة الإرادة الشعبية، وصحة تطبيقاتها باتجاه عقيدتها وأصالتها..

وهكذا مع التوسع في تشجيع العلم، وفي استكمال الحرية التشريعية بقوانين الشريعة الإسلامية نستعيد، ونعد المناخ الصالح، لمنهج التعبير الأفضل في الأدب العربي الذي طال صمته على غير عادته، وعلى الرغم من صحوة الشعب إلى الكثير من حقوقه.

إننا باستعادة هذا المناخ الصحي داخل مجتمع يدور بحركته بقوانين شريعة الله، يتوارى بالضرورة هذا المناخ الذي صنعته الأحزاب، ولا تزال تحاول أن تصنعه في ظل هذه القوانين الأوروبية التي أعدها أصحابها هناك لنظام وضعي، لا ديني، متغير الأصول، غير منضبط القواعد.. نظام يفترض بأحزابه القابلة للتشكيل والتناقض قيام الصراع الدائم بين السلطة والشعب، بهذا الأسلوب الدعائي، والخيالي أحيانا كثيرة، والذي يؤدي إلى القلق الدائم وإطالة المنازعات، وتخليقها إن لم تكن موجودة..!

إننا باستعادة هذا المناخ الصحي داخل مجتمع تصنع علاقاته، وتبنى إنسانية، شريعة الله.. نستطيع أن نكشف ما غاب عنا طويلا من أن كلمة "الاشتراكية" التي نحاول أن نأخذ بها من منابع أوروبية - شرقية أو غربية - هي بلفظها الأوروبي المعاصر Socalism أو سوشيالزم تشير من أول وجودها إلى الكلمة العربية التي نقلتها أوروبا من بين الكثير الذي نقلته - على قدر وعيها - من كلمات وركائز الحضارة العربية الإسلامية وهي بالذات كلمة "السواسية".. الكلمة العربية المؤمنة، التي عجزت اللغات الأوروبية القديمة عن التعبير عنها بمفهومها في مجتمع المسلمين الإنساني، والمتساوي إنسانيا في الحقوق والواجبات، فأسرع الأوروبيون بعد عصر النهضة وبعد الحروب الصليبية يدخلون في لغاتهم هذه

الكلمة العربية حاملة معناها الاجتماعي الجديد على أوروبا الطبقية بمفهوم الرغبة والأهلية لبناء المجتمع على أساس "التساوي" بين أفراده، وذلك حيث يقولون عن المجتمع Society أو Societe، وحيث يشتقون الاصطلاح عن مذهب "الاشتراكية" من هذه الكلمة نفسها فيقولون Socialism أي "الاجتماعية" وهو الاصطلاح الذي نقول عنه بالخطأ عربيا "الاشتراكية" بينما المعنى الأساسي هو "الاجتماعية".. أو هو بالضبط عربي وإسلاميا "السواسية" التي ينطقها الأوروبيون اليوم بكل لغاتهم قريبا من هذه الكلمة، وانتماء على البعد إليها فيقولون "سوشيالزم" أو سوسيالية..

نعم.. سندرك في المناخ الصحي والمرتقب بتطبيق الشريعة الإسلامية في أحكام مجتمعنا أن الكلمة الصحيحة للدلالة على مفهوم الاشتراكية هي "الاجتماعية"، وأن الكلمة العربية والإسلامية لهذه "الاجتماعية" هي "السواسية" التي يستعملها الأوروبيون بأقرب ما يستطيعون من اللفظ العربي كما اعتادوا أن يستخدموا للدلالة على معنى "الميثاق" كلمة تشارتر التي هي Charter أو Carta، وهي منقولة بالمحاكاة إلى لغاتهم المفصلية من الكلمة العربية "شرط" أي العهد والميثاق، وكان أبرز استخدام تاريخي لهذه الكلمة عندهم في "الماجناكارتا" أي "الشرط المغني" أو "الشرط العظيم" على عهد الملك الإنجليزي جون 1215.

في هذا المناخ الصحي، القرآني، وتحت أحكام شريعة نتنفس فيها الحرية بأكرم معانيها الإنسانية، ونعيش "السواسية" الإسلامية بدلالتها الحقيقية عن الاشتراكية - يمكن مع النمو التعبيري في طاقات الشعب وحاجاته، ومع التوسع في التعليم، ورعاية التعليم الديني، وتعليم اللغة، أو نجد البديل الذي نطلبه.. البديل العظيم الذي نعبر به عربيا وإسلاميا - في هذا العصر الحديث - في مواجهة الرواية الخيالية والمسرح، والذي

نتجاوز به جميع مخاطر التفكير الخيالي من الانحلال العقلي، والسقوط الأخلاقي، وضياع المجتمع عن أهدافه الحقيقية في الحياة من أجل الحرية والتقدم والوحدة..

ما هو البديل:

والآن ما العمل؟.. إذا صح كل هذا الكلام الصادق بأدلته وبرهانه فما هو الدليل؟.. ماذا بعد.. أو ماذا غير؟.. هل تغلق المسارح، ونجلس على المقاهي في الأحياء الشعبية لندخن الحشيش.. أو نقيم ليالي عنتر وأبو زيد أو نسترجع الحكواتي الشرقي الكذوب والأراجوز.. أم نفتح أبواب التصوف على آخرها ونغيب جميعا في حلقات الذكر!!

البديل رغم ضجيج الأبواق في بعض مواقع الثقافة وأجهزة الإعلام.. ورغم غطيط بعض المؤسسات والجمعيات الدينية التي لا تصنع شيئا هنا أو هناك.. البديل هو الأصيل.. البديل مع عملية الاعتدال الصحي، وليس الانقلاب الصحي، هو مع وضوح حاجتنا الشديدة إلى الحد، ومع استمرار أهبتنا للحرب عن الأرض التي يحتلها العدو - هو بالدرجة الأولى أدب مباشر نجمع به الحقائق، ونتزود من طريقه بالعلوم، ونصحح برؤيته أفق التاريخ العربي الإسلامي الذي وضعه الغرب، وهو يكتبه بنا من خرافات الشرق، وبأطماع الاستعمار - على شكل "أسطورة" رهيبة الظلمات، تختفي فيها الشخصيات الرئيسية، وتتباعد ملامحها ومعالمها، بينما لا تظهر داخل هذه الأسطورة المعروضة عن تاريخنا إلا بروق ورعود النزاعات والخلافات، وحروب الثأر والعصبية، والصراع السياسي بين الهاشميين والأمويين، وبين الأمويين والعباسيين، وبين العباسيين والجنود المرتزقة من الترك والمماليك.. وكأن تاريخنا الزاهر بعصور السلام، والرخاء، واجتماع الأضداد في توافقية وألفة في أعظم مناخ للحرية ينشد فيه جميع الناس من

العلماء والعامة أعذب الشعر، ويروون الأخبار، ويسمعون إلى القصص التي بدأ يدخلها "التخييل" بتأثير الرفاهية، وتجاوز حد الكفاية، .. كأن هذا التاريخ الزاهر بالسلام الاجتماعي، والسلام النفسي، والعلم والعمران، وبالرخاء والسواسية، خلال عشرة قرون.. لم يكن إلا مذبحة متصلة بغير هدنة داخل مجتمع خرافي من الكراهية والحقد، والجوع والجنون..!

ولقد يظن البعض ممن يتلمسون بخيالهم وجود وشائج قصصية مسرحية في التراث العربي يمكن بها تهجين الأدب المعاصر أوروبيا - قد يظن هؤلاء كما سجلوا في بعض كتيباتهم الدعائية للمسرح أن أدب الجاحظ القصصي في مثل كتابه "البخلاء" هو أدب قصصي يمكن تنشيطه أوروبيا.. أو مثل المقامات الأعجمية باللسان العربي.. أو نزولا إلى مستوى الحكواتي، والأراجوز، والمداح..!

والحقيقة التي تغيب عن بعض الدارسين المعاصرين لأدب الجاحظ من زاوية القصص أن الجاحظ قد ظهر في عصر تزايد السيطرة الأعجمية على الدولة العربية، وفوق أرضها، وإن يكن لسان هذه السلطة الأعجمية هو اللسان العربي الذي بدأ يدب إليه السقام حتى ليصبح على أرض العرب ما قاله المتنبي في مثل هذا الحال:

ترى الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان

فحيث ولد الجاحظ في البصرة من أبوين عربيين تحت وطأة انقلاب السيادة باتجاه النمط الفارسي، والهوى الأعجمي، في قصور العباسيين ببغداد نشأ يحكمه كما يقول الدكتور أحمد كمال زكي في كتابه عنه - هذا الشعور المتولد من اكتشافه بداية انطواء الإنسان العربي عن هذا المجتمع.. وأن هذه الانطوائية مع التطلع فيه إلى الأحسن، ومع شعوره بهوان أسرته في مجتمع يتطاحن بالقوميات من رؤوسها جعله من اضطرابه

واهتزازه "يكتب في الشيء ونقيضه، متحدثا عن الكلب والديك - مثلا - حديثا يبدو عاديا أو يبدو كما لو كان صدى لولعه بالجدل العقلي، أو امتدادا - قد نوه هو به - لمنافرات الجاهلين، ولكننا لا نلبث أن نتبين صلته الوثيقة بالوضع السياسي والاجتماعي"!

ومع ذلك فقد كان الجاحظ بعروبته، وفي غير اضطرابه القلق، قد نشأ وتأسس بكل ذاته وفصاحته وحافظته نشأة الرواية، وقد قصد إلى البادية في أكثر من رحلة طويلة يرى بها أرض الأسلاف، ويسمع ممن بقى سليما بها من شيوخها وشبابها وأعرابها، كما كان ينتجع إليهم لنفس هدف التزود بالأخبار واللغة أكثر علماء الأعاجم..

وكتاب الجاحظ "البخلاء" يحكي عن هذه الأوضاع الاجتماعية من منظور القياس العربي الذي يرى أن "الكرم" هو أحد "أبعاد" المروءة في الفرد. والصحة في المجتمع. فلم تكن قصصه اللاذعة والماجنة والاغرابية أحيانا إلا أخبارًا تنتحل ثوب الصدق الإخباري، وهي في جملتها مثل الرسوم الساخرة للأشخاص حين تعرضهم في وضع مكبر أو مصغر بدلالة النقد.. فالقصص في كتاب البخلاء ليست قصصا خيالية وإنما هي في قالب "الأخبار" قصص تشبع فيها داخل مجرى الفصاحة اللغوية، والتعبير الخطابي المباشر - ألوان مستطرقة من السخرية، تتفق مع الترف، والفراغ وصراع التوأم الذي ولدته الدولة العربية الإسلامية الكبرى.. التوأم العربي الأعجمي الذي التصق به العربي والشعوبي في المدينة العربية، كي منهما إلى ظهر الآخر.. بينما أخذت الملامح والرغبات والخصائص تتباعد بينهما مع الزمن حتى انفك كل منهما عن الآخر..

وكان مع الجاحظ في توأم واحد شعوبي سافر هو إبراهيم بن سيار رفيق طفولته، والمماوج معه في تلقي متناقضات هذه المواجهة في كل

المجالات بين العروبة والشعوبية، والتي كان يخفف منها دائما هذا الثراء في اللغة العربية، وهذه السماحة في عقيدة الإسلام.. فكان أثره على الجاحظ كبيرا في كل زلاته التي وقع فيها بأدبه الدعائي، والتجاري، فكتب يمدح ويذم كلا من العرب والعجم.. ويتكسب ويسترشي كلا من العرب والعجم.. بكلام ملك به ناصية البيان العربي بحجم زمنه، وعلى قدر حاجته، ولم تكن تلك الحاجة كالتي نواجهها اليوم هي إقامة أمة على قوائمها من جديد، وإنما كانت حاجة لا تزيد عن التشاتم باللغة، والتقارب من التربص، ومغالبة الفاقة القائلة في مجتمع المرفهين بإضحاك هؤلاء المرفهين، وإرهابهم أحيانا بالهجاء داخل "نادرة" أو "خبر" بهذه السخرية المتمنعة بحجة اللغة، وحجة التاريخ.. وهكذا جحظ الجاحظ براوية أخباره الاضحاكية.. فجحظ له المرفهون بما كان يسعى إليه بينهم مت عطاياهم السخيفة!

أما "المقامات" التي حاول بها الأعاجم محاكاة الفصاحة بأسلوب الوشي وزخرف القول، مع الزاوية في نفس الوقت بالأدب العربي من طريق عرض السجع البلاغي في قماشة زخرفية، باهتة الخيوط والنسيج، فقد كانت أقرب ما تكون إلى سجع الكهان، ولم تكن مع مغيب شمس البلاغة العربية الأولى أكثر من نماذج من الأدب العربي لا تصلح للفهم، وهي في شكلها أقرب إلى بضاعة السجاجيد لتي لا تستخدم في شيء نافع، وإنما تعلق على بعض الجدران، في بعض المتاحف للفرجة فقط.. والتندر!!

دفاع عن الخطابة:

البديل ظاهر.. ومعلوم.. ومستقر رغم تباعده القهري في حياتنا المعاصرة، وهو لا يحتاج إلا إلى الإرادة الجماعية ليدخل حياتنا الجديدة..

وقبل أن أعرض لعناوين هذا البديل أشير بكلمة لابد منها إلى الخطابة التي كثيرًا ما أنحى عليها الجاحدون والجاهلون باللوم والتقريع.. فمن البداهة أن عمود كل قدراتنا ونهضاتنا كان هو "الخطابة التلقائية" أو التي يسبقها التفكير والأعداد.. لا نقول إن المجتمع الإسلامي بامتداده الذي حقق ما كان في نظر الروم والفرس أسطورة غير قابلة للتحقيق.. لا نقول فقط إن هذا المجتمع العربي والعالمي قام حتى اليوم على منهج القرآن الخطابي الذي أسقط كل الأساطير.. ولا على خطب النبي في أصحابه من المهاجرين والأنصار.. ثم خطبته إلى جميع المسلمين في حجه بعد عام الفتح والنصر.. بل نقول إن كل تاريخ الأمة العربية في جميع مراحلها حتى ثورة 1952 قامت فيها القوة التعبيرية الجامعة والقائدة للجماهير على أساس الخطابة والأسلوب المباشر..

في جميع مواقع الحسم كان الزعماء خطباء.. وفي العصور فيما بعد الدولة العربية الواحدة.. كان صلاح الدين المنتصر بعروبة ثقافته وإسلامه خطيبًا.. وكان عرابي الثائر الذي كسب جولة لمصر رغم هزيمته خطيبًا.. وكان سعد ومصطفى النحاس ومكرم خطباء.. وكان جمال عبد الناصر وهو يرتقي بكلمته من العامية إلى العربية خطيبًا.. بينما عرفت المنابر أنور السادات في الضيق والسعة.. وخارج الحكم وعلى رأس الدولة خطيبًا يتميز بأدبه السياسي، ومنهجه العقلي، مع طابع الإيمان وهدفه..

ولكني أذكر – مع وفرة الخطباء في جميع المجالات – مثالًا واحدًا لخطيب واحد يعرفه الخاصة والعامة في القاهرة.. خطيب أضعه في كفة وأضع جميع أدباء القصة والمسرح منذ بدأت الكتابة بهما في مصر في الكفة المقابلة.. إنه خطيب مسجد كفيف.. يبصر المصلون على صوته كثيرًا من الحقائق التي تهمل أكثرها أجهزة الإعلام والصحف، فلا

تتصدى لها، ولا تتحدث عنها، وتتركها معلقة أمام الناس الذين يتساءلون.. ويريدون إشباع حق النقد والتصحيح والتقويم.. إنه الشيخ عبد الحميد كشك الذي توجد مسجلات خطبه في المسجد الذي يصلي به، والذي يغص داخله وخارجه بالمصلين، كما توجد هذه التسجيلات لخطبه لدى جمهور كبير هو في وعيه وثقافته أفضل، وأجدى، في حيوية هذه الأمة من قراء القصص الرخيصة المعنى، والمسرحيات العربية المنهج.. ممثلة أو مقروءة!

إن الشيخ عبد الحميد كشك يعطي على الرغم من توقف أسلوبه على النقد شحنة من الحيوية والنشاط في الاتجاه الصحيح، يبث بها الشعور بقيمة الحرية التي تسعه بها الدولة هو وجميع جمهوره الكبير، ممن يتاح لهم أن يصلوا الجمعة معه، أو أن يشتروا أحدث تسجيل لخطبته، أو أن يسمعوا أقوال أفراد ممن حضروا وسمعوا آخر روائعه الخطابية المباشرة عن هذا أو ذاك من أحداث كل يوم..

ولقد كان من الممكن أن يصبح غالبية خطباء المساجد من هذا الطراز الفذ، لولا قيود الوظيفة في وزارة الأوقاف التي ربطت وظيفتها بوصايا الموتى، بينما هذه المنابر التي ترعاها أمنة للمسلمين واجبة الأداء بوصية الله الحي الذي لا يموت..

ليس العيب في الخطابة إذن، ولا في الأسلوب المباشر.. بل إن صوتًا خطابيًا مئذنيًا صاعدًا مثل صوت أم كلثوم قد أثبت سرعة انتشاره في الوطن العربي وقوة تأثيره في شد أزر النضال الوطني، ودعم الحرب العربية المصرية أكثر كثيرًا في وزنه وقيمته من جميع تلك الكتب الطقوسية القصصية التي نام فيها كتابها على أرواحهم، وسرحوا مع أحلامهم،

بعيدًا عن مراكز المواجهة بالتعبير، وخمولًا في أبراجهم الوهمية عن يقظة الحياة، وشمس الواقع..

كتب مجموعة من الكتاب اليساريين في عدد خاص عن أم كلثوم فى مجلة روز اليوسف تحية لها وتقديرًا للجانب الوطني والإنساني في حياتها وفنها فقالوا تحت عنوان "70 عامًا من فن الخطابة": "لم تكن أم كلثوم مطربة وإنما خطيبة. كانت على أنغام صوتها تخطب في الناس.. تحرضهم.. تشرح لهم.. تنقل انفعالها إليهم.. وكان انفعالها مصريًا دائمًا"

وطبعًا كان هؤلاء الكتاب يعلمون وهو يكتبون أن أعظم ما كان خطابيًا ومؤثرًا في صوت أم كلثوم – باتساع الوطن العربي – كان هبة لها من القرآن الكريم، الذي حفظته بالحب والإيمان والولاء منذ طفولتها، فصنع هبة الله في صوتها صنعًا عربيَّ الأداء، جلي الفصاحة، حفظت به في أحسن ما أنشدته في خدمة وطنها حق الشكر لله على ما أنعم به عليها.. وغفر لها الله إن شاء ما انساقت إليه من أهواء من غلبوها من شعراء الإثارة على أهوائهم..!!.. وطبعًا هذه الجملة الأخيرة ليست مما كتبه اليساريون!

اللغة أولًا:

لقد كان تأثير الأدب الخيالي، الروائي والمسرحي، سيئًا جدًا على بنية اللغة العربية المعاصرة، التي أخذت تعاني من التخمة القاتلة بالتراكيب والمفردات الأجنبية، ولابد لكي يعتدل اتجاه الأدب العربي للتعبير بالمنهج الواقعي السليم أن تبرأ اللغة العربية من هذه التخمة التي يختلط بها الحي من لغة القرآن بالرميم من تراكيب اللغات الأوروبية وغرائب عاهاتها التعبيرية.

في أحد مراكز دراسة وتحليل اللغات العالمية بجامعات أمريكا علمت واطلعت على بعض أبحاث هذا المركز في جامعة ميتشجان عن اللغة العربية المعاصرة، وقد تناول البحث في وسائل تحليله عرض نماذج كثيرة من كتب الأدباء المعاصرين، وأكثرها قصص وروايات بالطبع لمؤلفين في أكثر البلاد العربية وفي مقدمتهم مصر – وذلك على الحاسب الإلكتروني لاستخراج نسبة ما في هذه الكتابات المحسوبة على العربية بكونها عصرية – من التراكيب الأوروبية، ومن الكلمات الأوروبية، ومن الكلمات العامية، ومن الاستعمالات التي يتجاوز بها أكثر هؤلاء الكتاب قواعد النحو والصرف، أو صحة استعمال الضمائر وأسماء الإشارة.. وكانت النتيجة من وجهة النظر العربية سيئة، وأليمة، بينما كانت من وجهة النظر الأمريكية، وهي نظرة بطبيعتها غير ودية لهذه اللغة، إعلانًا عن نتيجة سارة، ومشجعة على البدء في وضع مشروع من نوع مشروعات الغزو والهجوم المتواصل على هذه اللغة، منذ صيحات الحروف اللاتينية، وإزالة النحو وتشجيع العامية، ثم الادعاء والتباكي المسرحي بسبب صعوبة النطق بالعربية الفصحى.. وكان هذا المشروع الذي اطلعت عليه سنة 1974، وناقشت فيه مع غيري من المهتمين باللغة من المصريين ذلك السائح العربي الأمريكي، والأستاذ بجامعة ميتشجان الذي زار مصر بعد زيارته العراق وسوريا ولبنان، كما زار بعد مصر وتونس والجزائر – كان هذا المشروع مشروعًا أمريكيًا خاصًا بتبسيط النحو.. أو بمحاولة فض الاشتباك – لصالح أمريكا وإسرائيل في الوطن العربي – بين اللغة العربية والنحو..!

ربما يمكن الظن مؤقتًا بأن مركز البحث والتحليل للغات الشرقية الحية في ميتشجان قد أخذ يتمهل في مشروعه قليلًا بعد هذا الاستفتاء الذي

قام به السائح العربي الأمريكي في بلادنا، والذي سمع في مصر من علماء اللغة وبعض أعضاء المجمع اللغوي كثيرًا من النقد الشديد لهذا الاتجاه العدائي والسافر للغة العربية تحت عنوان الحاجة إلى تدريس اللغة العربية المعاصرة "مبسطة" كما يكتبها الأدباء المعاصرون من القصاصين وأشباههم مثلًا.. لطلبة جامعاتها في أقسام اللغة العربية..!

وهذه الحجة التي تعلق الأعذار في عنق القصاصين حجة واهية بالطبع.. ولكنها تكشف عن النوم غير الصحي للمجامع العربية كلها في بغداد ودمشق والقاهرة وتونس.. كما تكشف عما أصاب اللغة نفسها من هذه التخمة المميتة بالتراكيب الأجنبية، والتي أصابت اللغة في رؤيتها للواقع بالحلول المسرحي، فهي فاترة الأداء، تلوكها ألسنة حائرة، يتكسر فيها النطق بين المعنى الأوروبي والترجمة العربية الحرفية لهذا المعنى في لسان شعوب غريبة.. واللغة تذبل.. والناطقون بها أو أكثرهم لا يعرفون ماذا يصنعون. بينما على حساب هذا الازدواج الشاذ، مع خطورته القومية والوطنية، يزداد البحث وراء تعلم اللغات الأوروبية.. وتتضاعف الدعاية لهذه اللغات.. وينسى من يحرضون على هذه الخطايا أن من لا يحسن لغة قومه هو عن لغات الآخرين أعجز.. وهكذا يتردى المتعلمون من شباب هذا الجيل في الكثير من عثرات النطق والفهم سواء بالنسبة للغة العربية أو لغيرها من اللغات..

ومن بعض ما يضحك أن التركيب الأوروبي المقتبس من مناخ حياة المسرح والذي ترجمته الحرفية "يلعب دورًا" قد أظهره التحليل الأمريكي بنسبة عالية، دلالة على سعادة الأدباء القصاصين المتفرنجين بترويج هذا التركيب، حتى شاع استعماله فيما يصلح له وما لا يصلح، وأصبح أكثر أفراد المجتمع "يلعبون أدوارًا".. فأية أدوار يا ترى يلعبها الناس عندنا.. ومن

الذي يرسم لهم هذه الأدوار.. وهل هي أدوار مع المجتمع أو على المجتمع.. أو هل هي مع المجتمع وعليه في وقت واحد.. وهل الأدوار التي يلعبها اليمين مثل الأدوار التي يلعبها اليسار في مصلحة هذا الشعب.. وهل يمكن لجماعة إسلامية، أو لحزب يقول إنه ناصري أن يلعب كل منهما أدوارًا أيضًا.. وهل إذا تشابهت المفاهيم السياسية بين اليمين والغرب، وبين اليسار والشرق، يمكن أن تختلف مصادر الأدوار.. أو تتشابه بين الأصول والفروع.. أم لا أحد يعرف إذا ما نشطت حركة التأليف السياسي للأحزاب أي للروايات السياسية، بهذه الأشكال التي كانت قبل الثورة، أو بالأشكال المقترحة بعد انتهاء شوطها الشرعي.. من هو الذي – بالتعبير المستورد – يضع الدور.. ومن هو الذي يلعبه!!؟

على أن هنالك إصابة أخرى تعرضت لها اللغة العربية وهي تحمل جراحتها في صمت، وتدافع عن وجهها الصبوح بشرف.. إصابة في القلب.. إصابة لا يستطيع الحاسب الإلكتروني أن يدركها ويسجلها.. إنها إصابة في صميم الدلالة الوثيقة على مناخ "الإلحاد" المتزايد في كلمات مستحدثة نستخدمها استخدامًا وثنيًا مثل الغرب، أو كلمات أصيلة تحولنا لها وراء الغرب فأصبحنا نستخدمها هيا الاستخدام الوثني المعتم..!

.. من هذه الكلمات كلمة "الوجود" وهذه الكلمة أوروبية في الفلسفة، وهي تدل في الألسنة والمكتوبات الأوروبية على الكلمات العربية: "الخلق" وعلى التعبير القرآني: "ملكوت السماوات والأرض".. الفارق بين الخلق والوجود واضح في أن الكلمة العربية تحمل دلالة الإيمان بالخالق، بينما كلمة "الوجود" التي دخلت إلينا من طريق نقل علماء الكلام والمعتزلة للفلسفة اليونانية في صيغ إسلامية – لا تعني إلا مفهوم

الوجود بذاته.. الوجود كما هو في العين والحس.. هكذا.. ثم تبدأ الفلسفة في البحث عمن وراء هذا الوجود.. أو عما وراءه.. ثم تخيط طويل..!

ولقد استعملت كلمة الوجود في بعض فصول هذا الكتاب. لمواجهة المفهوم المقابل في الفلسفة، وفي المعنى المدرج في الستة المثقفين المعاصرين، وحتى علماء المسلمين، ولكني أضفت إليها كلمة "الحي" للدلالة على أن الوجود الحي لا يكون حيًا إلا بالخلق الذي هو قوانين حركة، ومشيئة الخالق تظهر في حركة هذه القوانين للدلالة لمن يفهم، ولمن يؤمن، على حكمة الخالق، وغاية الخالق..

.. ومن هذه الكلمات كلمة "السماء" بمعنى "الله" فقد جرت محاكاة أوروبا في استعمال كلمة السماء لتدل على الله، كأنما الله جالس هناك في السماء كما يجلس ملك على عرش، وهو استعمال أوروبي من عصور المسيحية، فكلمة Heaven تعني: السماء: والجنة أيضًا: كما تعني: الله عندهم. وهذا المعنى في العربية غير صحيح، فالله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، والله يقول عن نفسه: "وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ".. إن هذا الاستعمال الذي شاع مع الأسف حتى بين علماء الدين هو تعبير يحمل دلالة التجسيد، الذي يبتعد بالمسلم عن سلامة اعتقاده في الله الحي.. الله الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء.

.. ومن هذه الكلمات كلمة "العقلانية" وتعني نقلًا عن الفكر الأوروبي في مثل كلمة Rationalism المذهب العقلي المقابل للمذهب الاتباعي الذي يؤمن بالله والوحي. وبهذا أصبحت كلمة "عقلي" تعني غير ديني، وأصبحت كلمة "ديني" في لغة أوروبا بعد تحللها من المسيحية، واختراعها كلمة الأيديولوجية تعني "غير عقلي".. بينما العكس هو

الصحيح في معنى كلمة "عقل" باللغة العربية، وفي دلالة الكلمة وموضعها في القرآن.. فالعقل. وهو معنى لا مقابل له في جميع اللغات الأوروبية والأعجمية – يعني إدراك الصحيح، وهو إدراك يتم بمواجهة الواقع، والتفكير داخل حركة الواقع، وليس في عزلة وانطواء عنه، وهذا الإدراك الصحيح – كما يقرر بيان القرآن – وهو الطريق المباشر إلى الإيمان بالله الحق.. وفي هذا الارتباط بين العقل وإدراك برهان الإيمان يقول القرآن: "قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ" ويقول: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ".. فالعقلانية إذن باللغة الصحيحة هي مذهب المؤمنين.. وليست دعوى الملحدين الذين لا يعقلون بمفهوم لغتنا الكاملة السوية، وإن كانوا بلغتهم "يفكرون باطنيًا، وهو في حالة انفصام عن الواقع.. ثم يتفلسفون.. ويتخبطون.. ويتناقضون!.

.. نعم .. إن العقلانية بلغات أوروبا ليست لها علاقة بالعقل العربي الذي يدرك في واقعه المتحرك برهان الإيمان.. العقل عندهم طاقة داخلية غير محددة للتفكير.. إنها أحيانا تختلط بكلمة الروح Spirit.. وأحيانًا تختلط بكلمة النفس Psyghe.. التي لها أيضًا في تصور اليونان الخرافي قصة مع كيوبيد!

.. ومن هذه الكلمات أيضًا "المادية" وقد شاع استعمالها بتأثير ظهور الفكر الشيوعي، ونقلًا عن اللغات الأوروبية بمعنى أن "المادية" هي الإلحاد وأن المادية: Materialism هي عبادة المادة.. بينما الإلحاد هو في حقيقته وقوف عند تفسير "الخلق" وما فيه من الأشياء الحسية بأنه وجود ذاتي. وليس من خلق الخالق، ولا يعني عجز الملحدين الماديين عن إدراك "الخالق" المهيمن أن ننكر ما علمنا الله من أن "المادة" في عالم الأشياء إنما هي النعمة التي استخلفنا الله فيها بالعمر الصالح، بعد أن علقنا في حركتها

واتساقها وحكمة الخلق فيها، برهانها الحي، والدائم لنا، على اللّه القادر والمنعم.. ومعنى هذا أن علينا أن نفرق بين المذهب المادي والإلحادي وبين كلمة المادة" التي أخذت تشيع في ألسنة المتدروشين، الذين يخبون أحيانًا في الحرير، ويركبون السيارات الفارهة، ويستمتعون بالمادة - على أنها رجس يجب اجتنابه، وأصبح التعامل مع الأشياء حتى في طاعة اللّه هو في نظرهم "مادي" وانحراف.. وهذا معنى يجب تقويمه لأن كل ما حولنا مادة.. السماء والأرض والبيت والمكتب.. الزوجة والأبناء.. الشارع والسوق.. الحقل والمصنع.. الزملاء والأصدقاء.. كل هذا وكل هؤلاء "مادة" حية.. فأي انحراف في الإحسان بهؤلاء، وإلى هؤلاء، ومع هؤلاء، في صدق استخدام المواد أو "الأشياء" التي هي نعم لا تحصى.. في طاعة اللّه، وكما شاء اللّه؟.

.. ومن هذه الكلمات أيضًا كلمة "الروحانية"، وهي كلمة متطرفة في انحراف معناها عن سواء اللغة والقرآنية كانحراف المعاني المستحدثة لكلمة "المادية" وقد بلغ إلى لغتنا المعاصرة هذا المعنى المنحرف، والمتزيد من الباب الهندي الصوفي القديم، كما وصلت إلينا في هذا العصر بانحرافات الفكر الأوروبي حول كلمة الروح التي شاع معناها المتناقض مع معنى القرآن إلى درجة انتشار أكاذيب علنية وشعوذات تدعي أن هناك "أرواحًا" هائمة للموتى، وأنهم يقومون بتحضيرها، واستخبارها عن الغيب الماضي والمستقبلَ.

وكلمة "الروح" كما وردت في القرآن تعني بالتحديد والنص "مشيئة اللّه وأمره" فاللّه يقول في جوابه عنها - وهي كلمة لم يستخدمها العرب بالمفهوم الذي نقله اليهود عن الفرس واليونان - "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي".. وفي القرآن الكريم لا نجد كلمة الروح منسوبة لغير اللّه.. ولا نجد فيه مطلقًا جمع كلمة روح على أرواح، فالروح الذي هو روح

الله وأمره واحد.. كما أن الله خلف وسوّى للإنسان نفسًا لا روحًا، وهو في ذلك يقول: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا" ويقول: "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ" ويقول: "يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا" والنفس دلالة أيضًا على الذات وفي هذا يقول المسيح لله: "تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ".

فالروحانية إذن مذهب مبتدع على المسلمين، ولا أصل له في الإسلام وهو في مقابل المادية نغمة في مقام الجواب على ترك المادة، أي إهمال نعمة الله في الأشياء بإتباع الزهد الهندي في عقيدة البراهمة، وبعض الصوفية الداعين للخروج من الحياة، ومن التفكير، ومن العمل.. تمامًا بحسب نفس المصدر الروحاني عند البراهمة الهنود الذين يرون أن إلههم برهمن هو "البريم آنمان" أي الروح الأعلى، وأن الإنسان "جيو آنمان" هو الروح الأرضي، أن روح برهمن موزعة على أرواح تحل في كل شيء، حتى في العقارب والصراصير، والكلاب والقطط، وعلى هذا فممنوع في البراهمية والبوذية كذلك قتل ما فيه "روح" ولو كان ذبابة تحمل مرض النوم أو الكوليرا!

"الروحانية" هي أوهام التفكير الاستنباطي الهندي، وهي قد رجعت إلى اليونان في صورة الفلسفة الأولى للمذهب الصوري أو المثالي.. ثم تفجرت إلى أجزاء في أوروبا مع أمراض المسرح، ومع مآسي العدوان، والأحقاد وغلظة القلوب في الحروب المتكررة بالأسلحة الفتاكة التي استأصلت الملايين من شعوبها في الحربين العالميتين الأولى والثانية.. تفجرت منابع الهوس الروحاني عند من فقدوا أعزائهم، فسخر الدجاجلة الأوربيون منهم ومن أحزانهم وعادوا بهم إلى "الروحانيات" الهندية الأسطورية، وزادوا عليها علمًا دجالًا يروج بين المرضى والمصابين هو شعوذة "تحضير الأرواح"!!

لقد ساد المذهب الروحي القائل بأن لكل شيء في الطبيعة روحًا لها حق العبادة، وهو المذهب الذي أطلقوا عليه كلمة Animism- أرجاء أوروبا، من اليونان حتى بلاد الغال وإنجلترا في العصور الأولى التي حملوا فيها تراث الهند.. ثم أخيرًا مع الضربات والخيال والمسرح وأكاذيب السياسة الاستغلالية والحروب الطاحنة بدافع انحلال أوروبا العقلي تظهر الروحانية في صورة مرض عصبي جماعي جديد يؤمن بتحضير أرواح خيالية لا وجود لها.. أما البديل لها وهو "النفس" فهي عند الله يمسكها حية بعد الموت إلى يوم البعث وهذا هو قوله تعالى: "اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى" [الزمر:42^].. فكيف تكون هناك أرواح، وهي في لغة القرآن أنفس.. وكيف يستحضرها دجال الروحانية والله يمسكها..؟!

إذا فاستعمال كلمة "الروحانية" في لغتنا نوع من قبول الوهم بما يرفضه الإسلام، وتأباه اللغة السليمة، سواء بمعنى Animism أي عبادة أرواح الأشياء في الطبيعة بالمفهوم الهندوسي الأوروبي واليوناني القديم – أو بمعنى Spirtism أي تحضير الأرواح المزعومة في دجل أوروبا الحديث!!

هذه فقط نماذج من كلمات كثيرة تدور في لغتنا المعاصرة حاملة مرض الإلحاد في الفكر، والتبلد عن الوعي، والاستكانة للغزو الفكري الخارجي من خلال اللغة، وتغير خصائصها باتجاه عكسي على طريق العجمة والتفكير الخيالي.. وعلى هذا فإن أي خطوة راشدة نحو صحوة عربية موفقة، مؤمنة، آمنة من طابع الصراع، والقلق، والعلل العقلية الكامنة في لغة التخاطب أو الكتابة المعاصرة تبدأ أساسًا من تنقية اللغة مما أصابها، وتصحيح مسارها، والرعاية لها.. لتنمو بنا، وننمو بها.. تفكيرًا وتعبيرًا وعملًا.. إن شاء الله.

الأصالة ومنابرها:

من هنا ينفتح الطريق في حدود الإشارة إلى هذا البديل عن الرواية الخيالية لنعبر بآدابنا في هذا العصر تعبيرًا عربيًا إسلاميًا.. ولهذا البديل الذي تتسع له اللغة العربية النقية من المرض العصبي، ومن الفكر الوثني، والتفكير الخيالي باتجاه بناء مجتمع ودولة العلم والإيمان.. يشمل تنشيط المنابر الآتية:

الأدب العلمي:

وهو أن نعرض جميع العلوم في خطة واسعة لنشر العلم النافع من خلال صياغة أدبية ترفع من إنسانية المتعلم، ومن قدر المعلوم. وقد شق هذا الطريق الرحب، ونجح فيه نجاحًا محققًا لفيف من العلماء الإنسانيين الطليعيين نذكر في مقدمتهم الدكتور أحمد زكي يرحمه الله، والدكتور عبد المحسن صالح، كما نذكر الدكتور حسين الهراوي والجيولوجي القديم محمد محمود، وعددًا من العلماء الذين دونوا موسوعة أعلام العرب بعد الثورة مثل الدكتور أحمد كمال زكي، وأمثالهم على الطريق.. لو أننا أعددنا هذه الخطة الجادة لنشر جميع العلوم النافعة مبسطة من خلال منهج وهدف..

المنبر الديني:

كذلك فمن خلال إعداد الداعية الإسلامي على منبر المسجد ليكون مبشرًا بما يقول، وواعيًا لما يقول، ومعاصرًا وعاملًا بما يقول، ومستندًا إلى العلم الذي يقوم به القرآن ويقوم عليه الحديث فيما يقول.. فهذا إشباع تعبيري علمي تقدمي يكسر حدة المرض العصبي المتراكم من آثار المسرح والسينما، ويفرض تيارًا شعبيًا صحيًا يرشد ويوجه ما تبقى من

أطلال فنون المسرح والسينما.. تيارًا يتدفق من المنبر الديني كما ينبغي أن يكون..

المنابر السياسية:

والمقال الأدبي السياسي في الصحف كان متعة في عصر الأحزاب، وكان درسًا من دروس الإثارة العقلية، وتنشيط البرهان، وتجميع المتفرق. هكذا كانت رغم شوائبها مقالات العقاد ومحمد حسين هيكل وعبد القادر حمزة وأمثالهم. وكذلك كان الخطاب السياسي الرفيع الكلمة، والسريع الأثر، والوافر الإشباع والتوحيد والتجديد للشخصية المصرية العربية في كلمات زعماء وقادة أحبهم الشعب في مختلف أطواره، والتف حولهم، ونقل عنهم، مقل عبد الله النديم في عهد عرابي، ومثل مصطفى كامل، ثم سعد زغلول، ثم جمال عبد الناصر والسادات.. بما كان ولا يزال أعظم في الحجم من مليون مسرح على خشبته عشرين مليون زاعق وزاعقة بالأراجيف.. والخداعيات.. والأوهام..!

نعم.. هذه المنابر السياسية التي لا تملك النجاح إلا بالخطاب المباشر المالك بأصالة اللفظ والنظم والمعني أدب التعبير، وصدق الوجهة، سواء أكان مقالًا في صحيفة، أو خطبة في مجلس شعبي، أو في جمهور ناخبين، أو دعوة لدعم الاقتصاد، ومضاعفة العمل، ومناجزة العدو.. هذه المنابر تملك أعظم البديل بالكلمة الحقيقية والصحية للمجتمع عن الكلمة الخداعية في المسرح والفيلم، والتي تجلب المرض العصبي، بينما يتحول إليها اهتمام الجماهير كلما نضجت الكلمة الحقيقية في مجالس السياسة، وكلما خلا التعبير السياسي – كما نلاحظ على مستوى الآداء التعبيري للكثيرين من أعضاء الاتحاد الاشتراكي- من جاذبيته الأدبية، ومن طلاقته وصدقه وفعاليته.

ومن أحق بهذا الميدان المفتوح للأدب السياسي الرفيع في كلمة مكتوبة، أو خطبة مسموعة من أعضاء التحالف السلمي لفئات الشعب.. التحالف غير الصراعي.. الذي هو الأجدر بأن يقدم لجماهيره الكلمة الحرة المعبرة بالفصحى.. وبالجد والصدق.. بدلًا من ذلك اللون الذي نشأ أخيرًا في العمل السياسي من نثر الكلمات المعطرة.. والمتعثرة.. معنى وذوقًا وبيانًا.. وهدفًا!

التاريخ والسير:

ومن البديل عن المسرح والرواية الخيالية أيضًا حركة أدبية شاملة لإعادة كتابة التاريخ في شتى أبعاده.. تاريخ شعوبنا.. وأبطالنا.. وقادتنا.. وعلمائنا.. ومدننا.. وأنهارنا.. تاريخ نصحح به التاريخ في الروايات الشعوبية، وفي العنصرية الأوروبية.. بينما نمحو به في علمه وأدبه ووطنيته وقوميته هذه الصورة المفزعة لتاريخ أسود مكذوب على التاريخ، ليس فيه إلا الحرب والقتل، أو الخمر والجواري.. ومع هذا التاريخ، وتحت أجنحته مجال لنشر الكثير من القصص الإخباري الواقعي.. القصص الذي نكتبه من مصادره، ونقرأه من محققيه، لتنفية وتجلية صورة ذلك الماضي الذي نحمل إلى اليوم وراثاته، واستباقاته إلى المستقبل الأفضل..

في هذا التاريخ، وسير القادة من الأنبياء -بعيدًا عن الإسرائيليات- وسير القواد والزعماء والعلماء والفقهاء.. وفي هذا القصص الحق الذي نستعيد به ملامحنا على ملامح أسلافنا، ونؤكد من خصائصنا، ونجدد من قدراتنا على مزيد من العلم والابتكار، أو سد ثغرات المعرفة اللازمة لنمائنا وتقدمنا.. سنجد ولا شك هذا البديل الصحيح من تلك السلاسل والأغلال الخرافية التي سحقت أحلام وطهارة الشباب من أمثال أرسلين لوبين، واللص الشريف، وطرزان، وجونسون وملتون توب.. ومن عقارات

الهلوسة في كتب المجانين من قتلى الجنس والخمر من أمثال موباسان والفريد ي موسيه وتوماس هاردي، وصمويل بتلر اليهودي الذي اخترع صراع الأجيال، لتدمير الأجيال في قصة البنت التي تعشق في الحرام، فإذا اعترضها أبوها، لعنت التقاليد، ومزقت روابط الأسرة، وقمت للحرية صورتها التقليدية كما تريدها الصهيونية وهي حرية المرأة التي يمكن أن تبيع نفسها دائمًا.. فيروج شارع الهوى.. وتروج الخمارات.. ومحلات بيع المجوهرات والهدايا.. وتكثر الحاجة إلى بيع ما في اليد، وبيع التراث والأخلاق، أو الاقتراض بالربا الفاحش..!!

نعم.. نستغنى عن هذه المخدرات العقلية بأسمائها المتنوعة في القصص الخيالي، والمسرح العصابي، والفيلم الهستيري.. نستغنى بهذه الثروة المهدرة، والكنوز المخبوءة في أخبار وبطولات وقصص عصور الثورات العربية في مصر وغيرها.. هذه الثروة التي أتيح للأخ والزميل عبد الوارث الدسوقي بجريدة الأخبار أن يكشف أول الطريق إلى بعض منابعها المطمورة، وهو يفتح في جريدة الجمعة بالأخبار باب الإشارة إليها، ويقدم منها نماذج وعينات في أحاديث نشرها عن ذكريات جهاد ديني ووطني مع علماء أعلام ومجاهدين من أمثال المرحوم الشيخ يوسف خطاب رئيس الجمعية الشرعية السابق، والشيخ عبد الجليل عيسى –أطال الله عمره- عضو مجمع البحوث الإسلامية. ومن أمثال ثائر الأزهر القديم الشيخ الفتى عبد اللطيف دراز، وتلميذه الراوية المخضرم الشيخ أحمد حسن الباقوري.

ومن هذا اللون القصصي التاريخي ما أذاعته الإذاعة للشيخ الباقوري من أحاديث عن ذكريات تلمذته بالأزهر، مما أثار بها اهتمام وعجب الجيل الحديث حتى بين العوام في المدينة والريف وهم يستمعون إلى مرحلة من تاريخ القاهرة كانت على مرمى البصر منهم ثم طواها التاريخ عنهم من

غير تسجيل.. مرحلة وصفها الباقوري وصفًا جاحظيًا بكل ما بقى في ذاكرته عن عصر تلمذته من غرائب الألوان والمشاعرن وزحام الصور والأصوات، وعجائب الأحلام والمفاجآت، في ذلك الحي التاريخي المغلق حول الأزهر، والذي كان في خياله يومذاك "عالمه العجيب"، الذي يفتح فيه الأزهريون أعينهم –في نهاية ظلمات العصر المملوكي- على ارهاصات فجر الكفاح ضد الاستعمار الجاثم، وعلى أضواء المستقبل الواعد للمسلمين مع الحرية والعلم.. وأمل الحياة من جيد.

فكيف نرضى.. ولمصلحة من.. تندثر هذه الثروة القصصية في كل جوانب حياتنا الحقيقية.. بينما.. مع تقبل الغرق الذي أراده الاستعمار في بحار أوهام القصص الخيالي والمسرحي – نفرض على أجيالنا الظامئة للحقيقة هذا الفراغ التاريخي الذي يغترون فيه عن وطنهم.. الفراغ الذي يملأونه أحيانًا كثيرة بالتوافه.. مثل جمع طوابع البريد.. يريد العالم الذي نوشك ونحن فيه بغير تاريخ.. أن نفقد تصور رسالتنا فيه.. ورسالتنا إليه!!

أليس بمثل هذا القصص الواقعي، الذي عرفته وعاشت به أمتنا العربية منذ قبل الإسلام، وما بعد الإسلام – نتجنب مخاطر هذا الفصام التاريخي بين جيل وجيل.. هذا الفصام الذي يتكسر به في مجرى حياة أمة عريقة تسلسل مسارها، وتدفق عصارتها وحكمتها، بحيث تفقد الأجيال اللاحقة وهي تفقد عصارة الأصالة قدرتها على أن تستنبت عند القمم من جهودها أزهار وثمار أهدافها وآمالها..

منذ الذي يتذكر اليوم من أبناء هذا الجيل، وعلى وجه اليقين والعبرة ودقة الاستحضار – ماذا جرى خلال ثورة عرابي، حيث انتفضت هذه الثورة بأول بذور حقيقية للقومية العربية.. كيف كان هناك أهلنا يومذاك يعيشون ويفكرون.. وليس من وجهة نظر مؤرخي الانجليز الذين

أجهضوا الثورة.. ولا مؤرخي الخديو توفيق الذي تحالف بغير خجل مع الانجليز!؟

لقد ضاعت أكثر الحقائق.. وتوارت في الضياع، وفي أوراق الكتب الهزيلة التي أرخت لهذه الثورة أصدق ألوانها، ومذاقاتها، وصورها، ونكهة تاريخها.. كما ضاعت من بعد أخبار وحكايات وبطولات حقيقية عرفتها ثورة 19.. بينما بقية من أبطالها لا يزالون يتنفسون بيننا إلى اليوم ولا يتكلمون.. أبطال من الأزهر.. ومن الكنيسة القبطية.. ومن القرية.. ومن الشارع.. وقصص أعداء.. وأخطاء. وتجارب.. كان لابد أن نذكرها اليوم وغدًا كما لو كنا نزاها.. ونعلمها لأبنئنا..

ثم ها نحن هؤلاء قد بدأنا نختلف حول رؤيتنا العربية في مصر لأحداث ودوافع ثورة 52.. لاشك أننا نستطيع أن نرى.. وأن نوقف هذا النزيف للحقائق.. لنسجل القصص الحقيقية.. لنسجل في تاريخ هذه الثورة وغيرها ملامح فكرنا وعقيدتنا وكفاحنا.. إذا ما استرجعنا هذا البديل من الخرافة وسجلنا أدب وقصص الواقع.

الفيلم التسجيلي:

كل هذه البدائل لا تمنع بل تشجع استخدام السينما في عملية إحياء واسعة للعلوم باتساع مصر والوطن العربي، وذلك بالتوسع في استخدام الفيلم العلمي التسجيلي لنشر جميع العلوم، كما يجري هذا الاستخدام الآن في الجامعات والمجامع والمؤسسات العلمية، وفي مجال التدريب على الفنون الصناعية الحديثة.. وما أعظمها من مهمة تكفر بها السينما الأيروتية والبرونوجرافية كما يقول الدكتور حسين فوزي في نعيه الأخير

للسينما المصرية – عن جميع سيئاتها التي كانت.. والتي يمكن أن تكون..

وأما المسرح فوظيفته الحقيقية بعد تعقيم مكانه هو المحاضرات.. مزيد من المحاضرات في كل مجال ديني وعلمي وأدبي وقانوني.. محاضرات يظهر بها على المسرح نجوم وأبطال لهم ضوء مشع على الحقائق المتنوعة، والمتكاملة الدلالة، والتي لا زلنا حتى على مستوى المثقفين – الانتلجنسيا- كما يحبون تسميتهم- في أشد الحاجة إليها.. حاجة الفلاح الذي أهزلته الطفيليات إلى العلاج.. وإلى البروتينات والغذاء الصحي.. وفي هذه الحالة سيتسع فراغ الوقت بالتأكيد لأعمال اجتماعية كثيرة لترشي المجتمع، كما سيمتلي فراغ القلب القاسي عند بعض العلماء والمثقفين بالحب الاجتماعي، بحيث يمكن أن تتحرك المسارح البسيطة إلى القرية، وفوقها نجوم وأبطال حقيقيون من علماء مصر، الناطقين بالعربية المبينة.. يقدمون علمًا أعظم وأحب وأصدق في عطائهم لمواطنيهم.. بعيدًا عن أي عبث وتخييل وتضليل كالذي يجري على مسارح اليوم.. وأفلام اليوم!

عقيدة ورسالة:

وأخيرًا.. بعد هذا الخطاب الطويل والمباشر في هذا الكتاب –لأحب الناس إلي، وإلى أقربهم مني، من أبناء مصر والشعب العربي.. يبقى أن أؤكد الصحيح مرة أخرى، وهو أن هذا الشعب العربي في جميع أطوار حياته الممتدة منذ فجر التاريخ إلى اليوم كان شعب العقيدة الدينية، وشعب الرسالة التي يحملها لنفسه من منابع الدين، والحق، والصدق.. وإلى العالم المحيط به.. وهكذا كان عطاؤه الدائم للغير في فترات الرشد والصحو.. وهكذا كان دفاعه عن عقيدته وعن حقيقته، وعن حريته ولغته في فترات التخلف ورد العدوان..

إن الشعب العربي في مصر، وفي جميع الأقطار العربية، شعب ظاهره كباطنه، وعقيدته التي هي حقيقته هي رسالته.. إنه بالحقيقة التي آمن بها، وبالرسالة التي يحمل بجهده أعباءها، ويعطي من نفسه عطاءها – شعب "لا يلعب أدوارًا" في التاريخ.. شعب لا يمثل شخصية غير شخصيته.. ولا ينطق بكلام يوضع في فمه غير كلامه.. هكذا استعصى على اليونان والرومان، واشتد إيمانه بالمسيحية والإسلام، وحمل رغم العقبات وخطط القهر والتمويه والغواية رسالة الإيمان، يشعل منها زيت حياته، ويضيء بها طرق تقدمه.. كما كان فهو اليوم يكون.. وكما هو غدًا بمشيئة الله سوف يكون..

لقد عرف الشعب العربي نفسه في عقيدته، ولمس باليقين إيمانه بإلاهه، وهو بهذه العقيدة والرسالة ينال من الجهد أحيانًا.. يفتر.. يدركه بعض النعاس.. بينما يبث البعض في أذنه بعض أسطورات مسكرة، وأكذوبات مخدرة.. ولكنه سرعان ما يفيق.. إنه يفيق دائمًا.. ليضع الأسطورات الوثنية، والأكذوبات الإلحادية، وراء ظهره، أو تحت قدمه.. وهو ينهض بعقيدته، وإلى رسالته – كما يمكن أن تستمر صحوته ونهوضه اليوم، وغدًا، وهو يستحضر قول الله تعالى: "هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل".. والحمد لله رب العالمين.. والأمر إلى الله من قبل ومن بعد.. **وعلى الله قصد السبيل..**